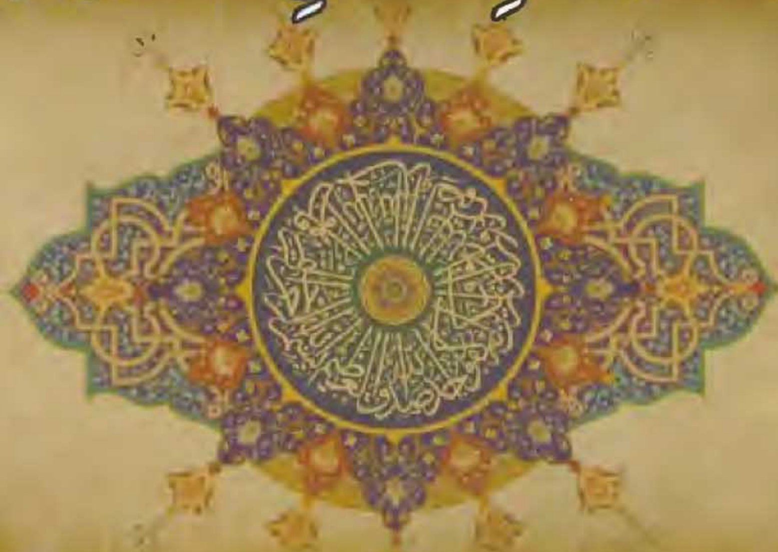
الاعتزاز والتشرف

بالانتساب لأهل التصوف



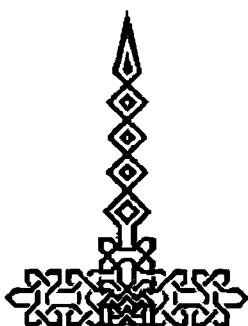
تأليف

الفقير إلى عفو مولاه الغني

مُحمد بن علي بن محمد باعطية الدوعني

مكتبة تريم الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع




الاعتزاز والتشرف
بالانتساب لأهل التصوف

□ الاعتزاز والتشرف بالانتساب لأهل التصوف
تأليف: محمد بن علي بن محمد باعطية الدوعني
الطبعة الأولى ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

قياس القطع: ١٤,٥ × ٢٢
عدد الصفحات: ١٦٨ صفحة
الرقم المعياري الدولي:
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية:

يمكن مراسلة المؤلف على العنوان التالي: m.a.baatiyah@live.com
www.mabaatiyah.com

التوزيع في الجمهورية اليمنية: مكتبة تريم الحديثة - حضرموت
تليفون: ٠٠٩٦٧٥٤١٧١٣٠

الإخراج الفني
خدمة النص: تشكيل وترقيم



hasansharif114@hotmail.com

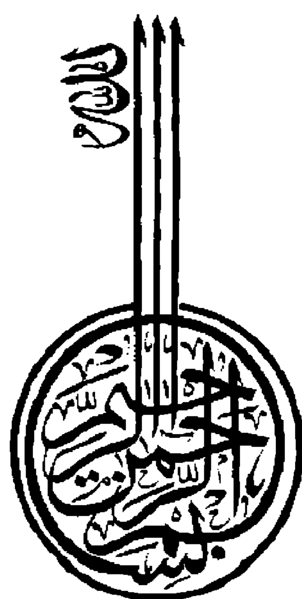
الاعتزاز والتشرف

بالانتساب لأهل التصوف

تأليف

الفقير إلى عفو مولاه الغني

محمد بن علي بن محمد باعطية الدوعني



تقريظ المنصب الفاضل

علي بن عبد القادر بن محمد ابن الإمام علي بن محمد الحبشي

المشيخة الكبرى برباط العلم الشريف حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[١]

الحمد لله الذي أنطق أهل خاصته بفهم الإشارة، وبث في قلوبهم بحكم منحة الإرث روح الغيارة، فأوقفهم على إقامة الدليل وتبين العبارة، فعقولهم في تجليات معرفته حاسرة، وأرواحهم في رحاب أنسه حاضرة، وأسرارهم من فيض جوده غامرة، فاستنبطت أسرارهم دقائق العلوم، ونطقت ألسنتهم بغيوث الفتح نتائج الفهوم، ونصلي ونسلم على خلاصة الجوهر الإنساني ومستودع سر العلم الفرقاني ومظهر رحمة الله في خلقه ومجلى تجلي لطفه في بريته، سيدي رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فقد انبرت همة الغيورين في هذا العصر للذود عن محجة التصوف، ليبينوا للناس الحق المعمى عليه، فمنهم من ظهر ذلك في حالهم ومنهم في مقالهم ومنهم في سمتهم ومنهم في نظمهم ومن تأليفهم ومنهم في خلواتهم ومنهم في جلواتهم ومنهم من صار مجلى لذلك كله.

وقد طلب مني أحد شيوخ العلم والتربية، وأحد خريجي مدرسة علية

---

(١) سورة الزمر، آية ٧٥.

القوم ممن افتخر بهم العصر، وزهى بهم الدهر، أخونا العلامة المربي سلمان أهل البيت في عصره، الشيخ محمد بن علي باعطية الدوعني أن أقرظ كتابه الماتع ، الموسوم بـ(الاعتزاز والتشرف بالانتساب لأهل التصوف) فقرأت كلماته وشربت مداده وتأملت مضمونه، فوجدته من الأهمية بمكان، فقد أشاد وأجاد وأحاط بالموضوع إحاطة السوار بالمعصم.

فبدأ -حفظه الله ورعاه- يضع اللبنات الأولى لتأصيل ماهية التصوف ومائية التعرف، بالعرض الإجمالي للمراحل التي انبنى عليها مفهومه منذ ما قبل البعثة، كجبلة إنسانية، وفطرة ربانية، جبل الله عليها عباده المخلصين إلى أن استوى هذا التصوف على سوقه وأينع ثمره وأصبح ركناً ركيناً يمثل ثمرتي الإيمان اعتقاداً والإسلام أحكاماً -ألا وهو الإحسان- إلى أن وصل المؤلف في استرساله إلى مرحلة الملك العضوض، ليتحول هذا الركن إلى ضرورة ملحة لإنقاذ الأمة من تيار الانحرافات العقدية والانزلاق في الزخارف الدنيوية التي طمت على مظاهر الحياة في العصر الأموي والعباسي وما تلاهما عندما بدأ تأسيس وتأصيل العلوم، من حيث تعلق خطاب الله تعالى بسلوك المكلف.

بيد أن مفهوم التصوف استمر يمثل الركن الثالث من غير منكر ولا جاحد حتى أتى القرن السابع وظهرت بعض الفقاعات المناوءة لمدلول روح ومقصد الركن الثالث لهذا الدين.

وكان المؤلف الشيخ محمد بعيد النظر، عميق الفكر، في كتابه هذا؛ إذ عرج على مكمن الخطورة في أسباب الهجمة العشواء على التصوف من قبل بعض الجهلة الذين لم يعرفوا كيف ومن أين يطلبوا العلم، الذين

فقدوا وجهلوا شرف الإسناد وبركة التلقي عن رجال العلم فتجدهم يتجافون عن العلوم التي تحلل النص، فلم يفقهوا شيئاً في أصول الفقه فوقفوا على ظاهر النص ، فلم يعرفوا العموم ولا الخصوص ولا الإطلاق ولا التقييد ولا المعارض ولا المرجح ولا مفهوم القول ولا منطوقه.

ثم إنهم أسقطوا الركن الثالث من أركان التشريع الإسلامي ألا وهو الإجماع، وبإسقاطهم الإجماع فقدوا البوصلة التي تنضبط بها المسائل والاستنباطات والفهوم، وأهدروا القياس فلم يعرفوا الإلحاق بعموم النص فبدعوا كل شيء يخالف ظاهر النص، بينما المهارة في باب القياس تجعل الدارس قادراً على أن يستخرج تأصيل المستحدثات تحت أصل شرعي يلحق المسكوت عنه بالمنصوص عليه.

وفقد باب القياس يؤدي إلى قولهم أن كل مستحدث بدعة لعدم قدرتهم على إدراجه تحت العموم.

واعتبروا علم المنطق فلسفة يونانية فلم يضبطوا فكرهم في وضع العلوم وتأسيسها والحكم على القضايا ووضع التعريف الصحيح للماهية، فخبطوا خبط عشواء فمثل هؤلاء لا يوثق بعلمهم ولا يؤخذ عنهم فضلوا وأضلوا.

ولنخلص من هذا المعترك الساذج إلى حقيقة التصوف الذي هو مراقبة الخالق جل جلاله والخلوص إليه والانقطاع على بابه ....

وما حلية الأولياء ورسالة المسترشدين والرسالة القشيرية وقوت القلوب والإحياء وعوارف المعارف ومدارج السالكين وشرح منازل السائرين ومعراج التشوف إلى التصوف إلا منابع لهذا الفكر فدونك

فاقرأها لتعرف لماذا ألف هذا الشيخ هذا المؤلف الماتع.

على أن التصوف لم يهمل الجهاد بالسنان كما يروج البعض فقد جمع التصوف العلم والعمل والجهاد في كل مراحله كما سترى في هذا الكتاب.

فجزى الله المؤلف خير الجزاء فقد فند مزاعم الذين كذبوا وافتروا على التصوف بالنقل المبتور واقتصاص العبارات الموهمة للحقيقة، روماً منهم لتشويه صورته وتزييف حقيقته.

فنقول لهم حقيقة التصوف كما قال أحدهم:

لَيْسَ التَّصَوُّفُ لُبْسَ الصُّوفِ تَرقَعُهُ ... وَلَا بُكَاؤُك إنْ غَنَّ الْمُغَنُّونَا
وَلا صِيَاحٌ وَلَا رَقْصٌ وَلَا طَرَبٌ ... وَلَا ارْتِعَاشٌ كَأَنْ قَدْ صِرْتَ مَجْنُوناً
بَلْ التَّصَوُّفُ أَنْ تَصْفُو بِلَا كَدَرٍ ... وَتَتْبَعَ الْحَقَّ وَالقُرْآنَ والدِّيْنَا
وَأَنْ تُرَى خَاشِعاً لله مُكْتَئِباً ... عَلَى ذُنُوبِك طُولَ الدَّهْرِ مَحْزُوناً

وهنا أجد الإمام الحبشي يقول:

وَدُونَكَ فَاسْلُكْ مَسْلَكَ الصِّدْقِ إِنَّهُ ... بِهِ العَبْدُ يَلقَى مَا يَرُومُ وَيَظْفَرُ
قَوَاعِدُهُ فِي الحَقِّ بِالحَقِّ أُسِّسَتْ ... وَوَارِدُهُ بِالفَوزِ فِي العَودِ يَصْدُرُ
تَخَيَّرَهُ قَومٌ فَنَالُوا بِهِ المُنَى ... فَللهِ مَا نَالُوهُ مِمَّا تَخَيَّرُوا
هُوَ المَقْصِدُ الأَسْنى لِمَنْ كَانَ قَاصِداً ... وَمُجْتَمَعُ الذِّكْرَى لِمَنْ يَتَذَكَّرُ

وكتبه عجلاً

المنصب/ **علي بن عبد القادر بن محمد**

ابن الإمام علي بن محمد الحبشي

المشيخة الكبرى برباط العلم الشريف

اليمن . حضرموت . سيوون.

تقريظ الداعية المفكر الإسلامي
الحبيب أبي بكر العدني بن علي المشهور حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ الفاضل/ محمد بن علي با عطية الدوعني

السلام عليكم ورحمة الله

سررنا بالاطلاع على كتابكم الحاوي على درر المعلومات، وقد تفاءلنا بقراءته خيرا، ونأمل بإذن الله أن يكون سبباً في تمكين الجُلّ الأوسع من القراء الراغبين في معرفة الحقيقة جلية واضحة.

جزاكم الله خيراً ووفقكم الله إلى خدمة الأمة على أفضل الوجوه.

وتقبلوا هذه الأبيات الشعرية كتعضيد لكتابكم القيِّم ودمتم.

طاب اعتزاز الفتى بل زاده الشرف	لما بدا وارد مُستمطرٌ يكفُ
ينمُّ عن ثقة في الله مسفرة	لخدمة الحق لما شانه الخلف
لم يقبل الضيم في عصر به ارتفعت	أصوات كل دعيّ طاله الصلف
فأعلن النسبة الخلصاء في شمم	للقوم من سادة بالزهد قد عُرفوا
وصاغ للقارئ المشغوف منطلقا	يهدي المريد إلى ما صانه السلف
وما حوته عبارات مقررة	عن التصوف عن قوم به التحفوا
حيَّاك يا ابن علي با عطية ما	سال المداد بكفٍّ ملؤه الشغف
تحمي جداراً يكاد الجهل يسقطه	وجملة الناس في الأسباب قد عكفوا
دافعت صدقاً عن المنهاج منجرداً	مبيناً سرَّ تسليك به اتصفوا

تلقى الجـزاء بهـذا يـوم محشرنا   في ظل مَن ظله الممدود يكتنف
والعصر إن شئت تحكي أهل ملته   وماعرى الناس جهلاً حيثما انصرفوا
فهو الزمان الذي أبدى معايبه   خير الأنـام وهـذا النص يعترف
هذا الزمان الذي قد كان يحذره   أئمة الدين فاقرأ عنه ما وصفوا
وما علينا سوى التبيان وهو لنا   قوام حجة هذا الدين لو عرفوا
ونشر علم لحفظ الجيل مِن شُبه   يصوغها البعض كيما يُطعن الشرف
والله يحمي رجال الحق إن برزت   جحافل الباطل المنحوس واتلفوا
فهو الـذي نص في القرآن آيته   يدافع الله عن إيـمان من قُذفوا
فنسأل الله أن يحمي مآثرهم   ويحفظ الإرث ممن بالعمى انحرفوا
ويكتب الأجر للأشياخ سادتنا   أهل الطريق فهم بالإرث قد شرفوا
مـن كـل حـبر إمـامٍ مـا لـه مثلٌ   كانوا لنا سندا من حيثما وقفوا
واليوم قد ذهب الأثبات وانتقلوا   لبرزخ الأنس حيث الحور والغرف
لكن سر الهـدى لا زال منتشرا   في كـل متبع لمـا بـه شغفوا
والحـمـد لله يحـي سرهـم أبـدا   فينا وفيكم وفيمن مثلكم عرفوا
وزادكـم ربنا من فضله كرما   علما وحلما وطلابا له ارتشفوا
والختم بالسيد المختار قدوتنا   والآل والصحب ما أهل الهدى انتصفوا

تـمـت

١٥ رمضان ١٤٣٤هـ

تقريظ العلامة الفاضل

الحبيب زين بن إبراهيم بن سميط حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب الأرباب ورافع الحجاب وفاتح الأبواب، والصلاة والسلام على أفضل من أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وأصحابه خير آل وأصحاب.

اعلم أن علم التصوف مما لايستغني عنه أحد؛ لأنه كما قال الشيخ الإمام العلامة عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه نفع الله به: يحتاج إليه لمعرفة ما هو واجب من الإخلاص وتخليص العمل من الشوائب والإعجاب والاختصاص وتنزيه القلب من الخبائث الموبقة بالسير على طريق الخواص، فهو لعمري مجمع صفوة الدين ومطلع أعمال المتقين ومنبع شراب المعرفة وحُمَيَّا اليقين، فمن لم يذق منه مذاقاً ولم يكتسب منه أخلاقاً فقد خسر وإن نال علم الأولين والآخرين، ولايناله بالكسب إلا الفذُّ النادر على يد الشيخ الكامل الماهر، كما قال شيخ الإسلام عبد الله بن علوي الحداد رضي الله عنه:

ولا بد من شيخ تسير بسيره ... إلى الله من أهل النفوس الزكية

من العلماء العارفين بربهم ... فإن لم تجد فالصدق خير مطية

ولا بد مع صدق الجهاد من نصر الله ومع بذل الاجتهاد من فتح الله ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1].

(١) سورة العنكبوت، آية ٦٩.

وبعد: فمن فضل الله تعالى أن زارني في بيتي بالمدينة المنورة الشيخ المحب الفقيه العالم المربي الوجيه محمد بن علي باعطية وعرض عليَّ تأليفه في التصوف وأهله، وطلب مني أن أضع له تقريظاً بعد مراجعته والنظر فيه، فأجبته نزولاً عند رغبته واستجابة لحسن عقيدته؛ وإن كان مثل هذا العلم لا يفي بتقريضه إلا أهله ورجاله.

ولا يَسَعُنِي إلا أن أقول ما قال الإمام الشافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

أُحِبُّ الصَّالحِين ولستُ منهم   لعلي أن أَنَال بهم شفاعة

فوجدت الكتاب وافي الغرض إن شاء الله تعالى بأهم ما يحتاجه طالب العلم في معرفة حقيقة التصوف والصوفي الذي تفقده الأمة الإسلامية اليوم سلوكاً ومنهجاً وحياةً. ولقد وُفِّق المؤلف المذكور -أطال الله بقاه، وأعلى مرتقاه- بالربط بين المنهج والعمل، وقد مزج -حفظه الله- مقاصد هذه الطريقة مع منهج التطور الفكري في عصرنا الحاضر. لقد استطاع إخراج هذا السِّفْر بلغة العصر المرغوب، وبأسلوب يصل إلى العقول والقلوب.

فنسأل الله جلَّ وعلا أن يبارك للمؤلف فيما قسم له من الخير، وأن يثبته عليه، وينفع به الخاصة والعامة من السالكين، وأن يجعله من العلماء الناصحين لله ولرسوله ولعباده المؤمنين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين.

كتبه الفقير إلى عفو مولاه
زين بن إبراهيم بن سميط

تقريظ العلامة الفاضل

الحبيب عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، يهدي الله لنوره من يشاء، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أفلح من أتى الله بقلب سليم. وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، ذو الخلق العظيم. صلى الله وسلم وبارك عليه وآله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم، وعلى أهل محبته المتبعين نهجه القويم، وعلى آبائه وإخوانه من الأنبياء والمرسلين، وآلهم وأصحابهم والملائكة المقربين، وجميع عباد الله الصالحين.

أما بعد: فإن استقبال ما بُعِث وأُرْسِل به رسولُ الله خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ؛ يقوم على تصديقٍ وقوةِ إيمانٍ، يعمق ويقوى ويتسعُ بعلمٍ وبيانٍ، ويَثبُت ويرسخ بعملٍ وتطبيقٍ على وجه الإحسان؛ فينتج ويثمر المعرفة الخاصة والمحبة الخالصة وحقائق الرضوان والقرب من الرحمن.

وإن أوّل وأعلى من رسخت فيهم هذه المعاني، وتحقّق بالاتصاف بها فشُيِّدت لهم بها المباني؛ أصحاب سيدنا رسول الله الأخيار، خصوصاً السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وأهل بيته الأطهار، ثم التابعين وتابعيهم بإحسان، على ممر الأزمان.

وقد سُمِّي وعُرِف واشتهر من تحقق بتلك المعاني والصفات؛ ممن أدرك نصيبه من المعرفة الخاصة والمحبة الخالصة، وارتقى بعلم اليقين

إلى عين اليقين، بعد القرن الأول؛ بالصوفية. وسُمِّي علمُهم وعملُهم تصوفاً.

وكان لهم السَّبق في ميادين المعارف، والعلوم، والأذواق، والمواجيد، والجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، والزهد، والورع، والنفع لعباد الله، والسعي في مصالحهم، والإصلاح بينهم، والدعوة إلى الله عز وجل، وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

وتَشَبَّهَ بهم ممن لم يصل إلى غاياتهم أقوامٌ سبق لهم التوفيق، فقاربوهم في السير إلى الله، وابتغاء رضوانه «ومَن تَشَبَّهَ بقومٍ فهو منهم».

وأَحَبَّهُم ووالاهم في الله أقوامٌ من عوامِ المؤمنين، فتهيَّئوا بذلك أن يُحشَروا في زمرتهم.

وادعى الانتماءَ إليهم والكونَ فيهم أقوامٌ من المغرورين، ومِمَّن التبس الأمرُ عليهم، وقنعوا بالرسوم والصور، ومِمَّن اتبعوا الأهواء، وآثروا الفانيات، وخالفوهم في أصولهم وحقائق سيرهم، وتسمّوا باسمهم كذباً وبهتاناً.

وقد كان الأئمة الأربعة: أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، ومشايخهم الذين تلقوا عنهم؛ خيرَ مثال للصوفية في العلم والتقوى والورع والزهد. ولهم عليهم جميل الثناء، وكذلك من قبلهم ومن بعدهم من علماء التفسير والقراءات والحديث رواية ودراية والفقه في أحكام الشريعة أصولاً وفروعاً. وكُتُب الجميعِ وما أُلِّفَ في أخبارهم وسِيَرِهم ومناقبهم شاهدةٌ بذلك.

ولم يزل شأنُ التصوف مرفوعَ القدر، وفضلُ الصوفية معلوماً للخاص والعام من أهل ملة الإسلام؛ حتى بدأ آحادٌ في القرن السادس ينتقدون

بعض المنسوبين إلى التصوف، معربين عن اعترافهم بفضل الآخرين من الصوفية. وليتهم بيَّنوا وأوضحوا أن المنتقَدَ عليهم؛ هم من خالفوا أصولَ التصوفِ ومسالكَ مشايخِه، فليسوا من الصوفية أصلاً. ولكن أوهموا أن هناك خطأً في أصل التصوف ذاته.

ولا شك أن علماء الشريعة الذين مَرَّ ذِكْرُهُم آنفاً، ونحن مِنْ بَعْدِهم؛ ننكر على مَن خالفَ أصولَ التصوف من كل ما يخالف الشريعة المطهرة والسنة الغراء، وإن كان منتمياً إلى الصوفية بالاسم أو إلى أي مذهب وطائفة.

ثم ظهر آخِرَ القرن الثالث عشر من يهجو الصوفية، ويطلق القول في ذمهم وسبهم، ولا يذكر من حقائقهم ومعانيهم إلا ما ظهر من مخالفات الأقوام الذين خرجوا عن أصول التصوف وطريق أهله، ونسبوا إليه أنفسهم كذباً ممن أسلفنا ذكرهم. وأخذوا يصورون التصوف بما يناقضه، ويلمزون أهله على العموم على خيانة في التصوير والنقل، وأخذوا يتوسعون في ذلك بمختلف وسائل النشر والإعلام، حتى غيبوا عن أذهان كثير من الناشئة الحقيقة عن التصوف وأهله، وأوهموهم عنه الصورة البشعة التي اختلقوها عن التصوف وصوروه بها، بخيانة في النقل وتناقض مع ما يتظاهرون به من احترام الأئمة الأربعة وجماهير علماء التفسير والحديث والفقه.

وكُلُّهم -أي الأئمة الأربعة وجماهير العلماء- على قدم التصوف الحق القويم، يجتمعون على معناه وأصوله، وإن برز كُلٌّ في مجال اختصاصه. فكانت عناية المختصين بعلوم القرآن؛ بالقراءات ومعاني الآيات وما تعلق بذلك من علوم القرآن. وكانت عناية علماء الحديث والسيرة؛

بالأسانيد والنصوص رواية ودراية. وكانت عناية علماء الفقه؛ بأصول وفروع أحكام الشريعة المطهرة. وكانت عناية علماء التوحيد؛ بعلوم الإيمان الإلهيات والنبويات والسمعيات. وكانت عناية علماء الإحسان (التصوف - التزكية - فقه الباطن)؛ بصفات القلب وتطهيره عن الرذائل من الصفات المذمومة وكل المحرمات والمكروهات وخلاف الأولى، وتزيينه بالصفات المحبوبة لله، ودوام ذكره تعالى والحضور معه، تتميماً للتزكية، وترقياً بها إلى الوصول إلى معرفته الخاصة ومحبته الخالصة، والارتقاء بعلم اليقين إلى عين اليقين.

وكُلُّ أهل هذه الاختصاصات يكمل بعضهم بعضاً، ويشد أزرَ الآخرين في ميادين علوم الإسلام والإيمان والإحسان. لا تباعد بينهم، ولا تخالف يقتضي التفريق، ولا تناقض ولا تباغض ولا تدابر؛ إلا ما شذ من آثار نفسية شخصية أو سياسية لا حكم لها ولا اعتبار لها في أمانة العلم وحقيقة السير والوجهة. بل يصدق على كل المخلصين الصادقين منهم قول الله تعالى في أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

ولما كان الأمر كما ذكرنا، وغابت الحقيقة عن الكثير من أبناء الجيل الناشئ في القرن الخامس عشر، ووقعوا في شباك الوهم والخيال والجهل المركب، وانتُهِكَت حرماتُ الأكابر من صلحاء الأمة وخيارِها قديماً وحديثاً، وظُلِمُوا وسُبُّوا تصريحاً أو ضمناً؛ حملت الغيرة على دين الله، ووجوب النصرة للمظلوم، وأمانة العلم، وواجب تبيين الحق والهدى؛ الشيخ الأجل الموفق المبارك العالم العامل الداعي إلى الله تعالى/ محمد بن

(١) سورة الحجر، آية ٤٧.

علي بن محمد باعطية الدوعني؛ على تأليف هذا الكتاب النافع المفيد: (الاعتزاز والتشرف بالانتساب لأهل التصوف) نصحاً منه لأئمة المسلمين وعامتهم، وتبييناً للحق، وأداءً للأمانة. فجزاه الله خير الجزاء، وأجزل مثوبته، ووسَّع وضاعف النفع بكتابه هذا، الذي بيَّن فيه: عن حقيقة التصوف وأصلِه الذي وضعه خاتم النبيين محمد ﷺ، وأثر ذلك في الصحابة وأهل البيت والتابعين، وأهل التصوف المقتفين لأثرهم على مدى الأعصار، وما أنتج في النواحي الأربع: الاجتماعية والخلقية والاقتصادية والسياسية؛ على مر العصور، ببيان شافٍ وافٍ؛ يتضح به دور أهل التصوف على مدى العصور، في تاريخ الإسلام وحمايته ونشره، ودعوة أهله إلى الاستمساك بحقائقه.

تَقَبَّل اللهُ من الشيخ/ محمد باعطية؛ جهده، وأيقظ قلوب المسلمين، ونوَّر عقولَهم، وزكَّى نفوسَهم، حتى لا يكونَ للشيطان وجنوده من الجن والإنس عليهم سلطان، آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وآبائه وإخوانه من الأنبياء والمرسلين، وآلهم وصحبهم، والملائكة المقربين، وجميع عباد الله الصالحين، وعلينا وعلى مؤلِّف هذا الكتاب، ومن انتفع به معهم وفيهم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ ابن
الشيخ أبي بكر بن سالم باعلوي
ليلة الخميس السادس من ذي الحجة
الحرام ١٤٣٧هـ السابع من سبتمبر ٢٠١٦م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين، من ترك أمته على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله الهداة للناس في كلِّ زمان ومكان؛ لأنهم سادة الناس وهم لهم أمان، وعلى أصحابه من حملوا راية الدين بعده وبلَّغوه، فرضي الله عنهم ورضوا عنه، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان.

وبعد: فيقول العبد الفقير راجي الهبة والنوال من ربه ذي المواهب السنية الهنية محمد بن علي بن محمد باعطية: لما رأيت الهامل والخامل والقاصر والجاهل في هذا الزمان قد اتخذوا سهام جهلهم صوب صلحاء الأمة وحاملي لواء السنة، من ساروا على نهج الرسول والأئمة من السادة الصوفية أهل النفوس الأبِيَّة والصفات العالية الخُلُقيَّة، الذين حفظوا للأمة ثالث أركان دينهم وهو الإحسان، حيث بيَّنوه بالعمل قبل القول، وخرَّجوا الرجال في هذا المجال، قبل تصنيفهم لكتاب وشرحهم لحال، فكانوا منارة للإسلام وشواهد للأنام.

ولكن كما أسلفت تناولهم الفئام من الجُهَّال، أو من الذين لا يستطيعون أن يرقوا مجد أولئك الأشاوس، أو من المترسمين ببعض العلوم من

غير إتقان، وأكثرهم دعِيٌّ على العلم وأهله، فكم في هذا الزمان مِمَّن ترسم بالعلم ولم يكن حتى في تسلسل أسرته من اشتغل بالعلوم، أو ممن انقطع بهم الحال وتكسبوا بها لبسوه من عباءة العلم، وهم أفرغ العباد عنه إلا ممَّا تقمصوه من معاداتهم لأهل الله، فاتخذوهم غرضاً في أحاديثهم ومصدراً لأراجيفهم، عملاً بكيد الأعداء لأهل الإسلام، حيث اتخذوهم وسيلة لإبعاد الناس عن أهل الصدق والدين والإيمان، من جهابذة أهل الله وجمهور أهل العلم، الذين اتخذوا من التصوف درعاً واقياً يقيهم الوقوع في حقارة ورذالة وخساسة النفوس والهوى والشيطان والدنيا القذرة، وهو ما كان عليه الرعيل الأول، حتى انتشر أمْرُ قَذْع وانتقاص أهل التصوف في مجالس العامة وفي أفواه الجهلة، بما رُوِّج عليهم من ظلمات المروِّجين، وأفلح هؤلاء في إبعاد أمة الإسلام عن القدوة الصالحة التي تفتقر لها كل أمة أرادت النجاح، والتي أشار إليها النبي ﷺ في حديثه لأمته حتى يكونوا في مصافِّ الأمم الناهضة الراقية، فوجَّههم بقوله: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ»(١)، فأرشدهم عليه الصلاة والسلام للاقتداء بأهل القدوة في سيرهم، وحاشا لله أن يخلو منهم زمان أو مكان، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله لا يضرُّها من خالفها» رواه ابن ماجه وإسناده جيد، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

ولما زاد بهؤلاء الحال وعكفوا على الباطل إما لنيل المال أو الجاه أو الرياسة على الجهال، أو لمصالح أخرى يرجونها -والله سيحاسب

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث العرباض بن سارية مطولاً. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

الجميع على ذلك-، نفثوا هذه السموم في المجتمعات، ونشروها في وسائل الإعلام بأنواعها وفي المساجد التي استولوا عليها أو بنوها لتكون ضراراً على المسلمين وتفريقاً لأمرهم، ولا شيء يكثرون فيه من الحديث إلا معاداتهم لأهل الله وتنفير الناس عن هديهم وطريقتهم، ونشروا ذلك في ربوع البلاد بعد نشرهم لها في أقاصيها الخالية من أهل العلم. وبما أنهم قد تملكوا أماكن مخاطبة الناس في الوسائل والمساجد فقد نشروا ذلك حتى وصل الحال بهم أنهم يجعلون الانتساب إلى أهل التصوف منقصة وسِمة يَسِمُون بها من يريدون أن ينفروا العامة عنه، وهم بذلك يهدمون ركناً من أركان الدين، وهو الثالث من أركانه وهو الإحسان، والذي عنى به أهل التصوف وأكملوا دينهم به.

سبب تأليف هذا الكتاب:

من أجل ذلك كله وضعت هذا الكتاب؛ لا أقول في الدفاع عن أهل الله تعالى، لأن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا؛ وإنما لما يلي:

١- بيان الحق وإظهاره للناس حتى لا يقعوا فيما أراد لهم الأعداء الوقوع فيه، من أن لا يكون لهم قدوة بالصالحين الذين قال الله في حقهم لنبيِّه: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام، آية ٩٠.

(٢) سورة النساء، آية ٦٩.

٢- تثبيت الناشئة الذين نشؤوا على حبِّ أهل الله والتعلق بهم والبحث عن تراجمهم وقراءة سيرهم وسبر أحوالهم.

٣- تَحَقُّق القدوة لهم في أولئك، فيسلكون سبيلهم ويتحلون بصفاتهم.

٤- تعريف الناشئة أن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل القرون الأُوَل ومن نهج نهجهم مِمَّن أتى بعدهم على هذا المنهج التصوفي الذي أرسى قواعده الرسول الأعظم صلوات ربي وسلامه عليه.

*** ولذلك سأتطرق في كتابي هذا إلى النقاط الآتية:**

١- عرض ما كانت عليه حياة الجاهلية من النواحي الأربع الآتية:

أ- الناحية الاجتماعية. ب- الناحية الأخلاقية.

جـ- الناحية الاقتصادية. د- الناحية السياسية.

٢- ظهور النبي ﷺ واعتناؤه بتلك النواحي، وذلك بتقسيم أدوار حياته ﷺ إلى دورين:

١- ما قبل مبعثه.

٢- ما بعد البعثة.

وينقسم الدور الثاني من حياته إلى عهدين:

الأول: ما قبل الهجرة، وهو سِنِي مكوثه في مكة بعد البعثة.

الثاني: ما بعد الهجرة، وهو سِنِي مكوثه في المدينة.

ويتناول العهد الثاني النقاط الآتية:

١- إرساء دولة الإسلام في المدينة المنورة.

٢- دولة الإسلام في عهد الراشدين.

٣- خروج السياسة عن رسوم ما كان عليه الراشدون، وانتقاله

للملك العضوض، وتدهور الوضع في ذلك الوقت، وخروج الناس إلى الميل بزخارف الدنيا ومتعها، وقيام أهل التصوف في ذلك الوقت لسدِّ هذه الثغرة الخطيرة في حياة الأمة.

٤- الانحطاط في كيان دولة الإسلام وتمزيق الدولة إلى دويلات متناثرة وموقف أهل التصوف.

٥- احتلال بلاد المسلمين ودحر الاحتلال على يد أهل التصوف، ومعرفة الأعداء أن الدين الإسلامي وأمته قائمان بقيام رجالات التصوف.

ولذا خرج أعداء الإسلام بنتيجة لا بدَّ أن ينشروها ويروِّجوها في أذهان أبناء المسلمين، وهي محاربة أهل التصوف، وتلقَّف تلك الفكرة من أعداء الإسلام وروَّجها أولئك الذين ذكرناهم آنفاً.

وسأعرض النقاط الأُوَل من الكتاب بشكل سريع؛ إذ مفاد ما سأعرضه ليس إلا وصولاً لبيان أمرين:

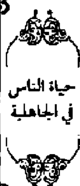
الأول: منشأ التصوف وتقعيده كعلم كسائر علوم الإسلام.

والثاني: هجمة الأعداء على أهل التصوف، وترويجهم لهذه الهجمة في أبناء المسلمين، وتَقَمُّص البعض لما أراده أعداء الإسلام.



حياة الناس قبل الإسلام

(أي: في الجاهلية)



أولاً: الناحية الاجتماعية:

إنه من المعروف أن جزيرة العرب في ذلك الوقت قد عمَّها عبادة الأوثان والأصنام، وكانوا يحتكمون إلى الطواغيت، وعندهم من الأمور التشريعية من وأد البنات وأكل الميتة وشرب الخمور والسفور وغيرها مما حكاه التاريخ لنا.

ثانياً: الناحية الأخلاقية:

كان لا يمنعُهم مما يقومون به دين، ولا يردُّهم حياء، حتى أنهم عقدوا للزواني رايات، وكنَّ يُسَمَّيْن بأصحاب الرايات، بل ويَستعبِد بعضُهم بعضاً، ويؤخذ النساء جواري تُستحلُّ فروجُهن في الغارات، ويقتل بعضهم بعضاً لأتفه الأسباب، وتُستحل الدماء والأموال والأعراض في الغارات التي يتفاخرون بها، وقد تقوم بينهم الحروب لأعوام يهلك فيها الحرث والنسل لسبب واهٍ أو غرض دنئ.

ثالثاً: الناحية الاقتصادية:

كانت أخلاق العرب في جزيرتهم كما أسلفنا تسمح لهم بالغارات ونهب بعضهم بعضاً خاصة أهل البوادي، وأما أهل المدن فقد يحترفون الزراعة أو التجارة، وغالبهم في حالة يرثى لها بسبب جهلهم وأمِّيَّتهم. وهذا كله أثَّر على الناحية الرابعة.

رابعاً: الناحية السياسية:

لم يكن لهم من يوحِّد صفهم ويجمع كلمتهم بسبب جهلهم وأمّيتهم، فهم قبائل متنافرون متناحرون متباعدون، وإذا ظهر في مجموعٍ منهم ملك فهو تابع لإحدى أعظم قوتين في ذلك الوقت وهما الروم والفرس، وهذا معروف عند من سبر سيرة العرب قبل الإسلام.

ومع حالتهم -التي وصفناها- في ذلك الوقت ظهر بين أظهرهم النبي ﷺ، وسوف أمرُّ على سرد بقية النقاط التي تقدمت بإيجاز شديد؛ لأن مجال التوسع في كتب السيرة، وإنما ذكرنا ذلك لكي نصل لمراد كتابنا ونتيجة بحثنا فيها.



ظهوره عليه الصلاة والسلام

أولاً: قبل البعثة:

ظهوره عليه الصلاة والسلام

لما برز ﷺ إلى حيِّز الوجود عمَّ الكون نوره، وعبقت في الأرجاء بركته. وكم ترجمت كتب السِّيَر من أمور بدت وظهرت في الكون عند بروزه وولادته عليه الصلاة والسلام، ثم ترعرع عليه الصلاة والسلام في بلده وبين قومه مثالاً لكل خلق رفيع، حتى احترمه الكل وضربوا بأخلاقه الفاضلة أروع الأمثال، واجتنب كل عباداتهم الفاسدة الباطلة. واعتزل أهل بلده فيما يعملون، وانقطع للعبادة والخلوة يربي نفسه ويتصل بخالقه، حتى ذكرت كتب السِّيَر أنه كان يختلي في غار حراء الليالي ذوات العدد، تزكية لروحه وصفاء لنفسه باتصالها بالخالق عز وجل، وهذا كله قبل البعثة. ومن هنا نعلم مبدأ رسول الله ﷺ في غرس التزكية والسَّيْر على السلوك الذي يؤدي إلى تحلية النفس بعد تخليتها، وهي التزكية أو التصوف الذي سمي بعد ذلك كتسمية لمسمَّى موجود ومعلوم، بل وسار عليه النبي ﷺ قبل البعثة واستمر إلى ما بعدها إلى أن لقي الرفيق الأعلى.

ثانياً: بعد البعثة:

عهد ما قبل الهجرة

تنقسم فيها أدوار حياته عليه الصلاة والسلام إلى عهدين: الأول: ما قبل الهجرة -أي: في مكة المكرمة-، وذلك بعد أن نُبِّئ عليه الصلاة والسلام ثم أُرسِل إلى قومه، فدعا إلى الله تعالى مع ما كان يغرسه في نفوس من اتَّبعه من فضائل الأخلاق والتحلي بمكارم الأفعال، بعد تخلية النفس من الرذائل والرعونات، ففي ذلك العهد كان عليه الصلاة والسلام يربي أتباعه على سموِّ الروح

وتزكية النفس، ويسير بهم إلى ارتباطهم الوثيق بالله تعالى، والتعلق به في جميع أدوار حياتهم، حتى كان لما يمر بالمعذَّبين منهم والذين نالهم الأذى من كفار قريش يقول لهم: «صبراً يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة» رواه الحاكم في (المستدرك) والبيهقي في (الشعب) وغيرهما. وسار بأصحابه وأتباعه على هذا النهج، حتى لما كان يُسأل عن مبعثه يقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» رواه أحمد والحاكم والبيهقي وغيرهم. وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه بقوله:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(1).

وبهذه التزكية التي قد ذكرنا أنها التصوف الذي غرسه في أتباعه استطاعوا أن يصبروا على مُرِّ التعذيب والأذى الذي لا تتحمله إلا نفوس زكية ارتبطت بخالقها وبارئها فتلتذ بكل ما يحصل لها؛ لأنها لا ترى فعلاً إلا له، وهذا لا يصدر إلا عن أصحاب النفوس الراقية المتربية. وصقل النبيُّ أصحابه وأتباعه على ذلك، فكانوا في ذلك العهد لا يَرُدُّون على أذى إلا بالصبر، وتلك تربية يربِّيهم عليها مُعلِّمهم عليه الصلاة والسلام.

عهد ما بعد الهجرة

وبقوا على ذلك حتى أذن الله لهم بالهجرة، وهي العهد الثاني من حياته ﷺ وأصحابه، فانتقلوا إلى المدينة، وبقي يغرس في نفوسهم هذه التربية، وربَّاهم على التعايش مع طوائف الناس في ذلك المجتمع، الذي يشمل الموحدين واليهود والمنافقين والكفار، وربَّاهم على التعايش الكامل مع ما هم فيه من تربية روحية زاكية عالية، حتى شعر بها أصحابه، وأخبروه

---

(1) سورة الجمعة، آية ٢.

بذلك عندما قالوا له: يا رسول الله نكون عندك تُذَكِّرُنا بالنار والجنة حتى كأنَّا رَأْيُ عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ثلاث مرات، رواه مسلم.

وهذا هو التصوف، وهو الصفاء وسموُّ الروح الذي يسعى إليه أهل الله الذين استقوا ذلك من حياة نبيِّهم وأصحابه.

أ- الدولة الفتية في الإسلام:

بما مرَّ ذكره يكون الرسول ﷺ -أي: في المدينة- أرسى بناء الدولة في الإسلام حين قام بالتالي:

١- أرسى قواعد التعايش مع بعضهم بعضاً، بأن نسخ من قلوبهم الأنانية فآخى بينهم. ومنَّ الله عليهم بذلك، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[1].

٢- حدَّد لهم في سير حياتهم التعايش مع الآخرين كما أسلفنا من اليهود والكفار والمنافقين.

٣- التزكية الدؤوبة في كلِّ حالات حياتهم، وهي مقام الإحسان الذي عُني به عليه الصلاة والسلام من قبل مبعثه إلى نهاية حياته.

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٠٣.

٤- غرس ﷺ الإيمان في نفوس أصحابه بأركانه الستة التي جاء بها القرآن والسنة المطهرة.

٥- بيّن الأحكام الشرعية العملية في أركان الإسلام الخمسة.

وهذا جملة ما قام عليه المجتمع في عهده عليه الصلاة والسلام.

فبهذه الأركان الثلاثة قامت دولة الإسلام، وخرج النبي ﷺ من دار الدنيا إلى دار البرزخ وقد أتمَّ للناس أمر دينهم، كما ذكر الله تعالى ذلك في كتابه بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

فأتم لهم عليه الصلاة والسلام ما يصلح معادهم ومعاشهم من غير إفراط في المادية أو إيغال في العبادة حتى تصبح رهبانية. وهكذا أتت من بعده عليه الصلاة والسلام دولة الراشدين.

ب- دولة الراشدين:

حفظ الخلفاء الراشدون على الناس التوازن الذي خلَّفه لهم النبي ﷺ في سائر شؤون حياتهم، وبقوا على ذلك، ودخل في الإسلام في عهد الراشدين كثير من الناس في مشارق الأرض ومغاربها، وفُتحت في عهدهم الفتوح، وحصلت حوادث في وقتهم امتلأت بها كتب السير والأخبار، حتى انقضت الخلافة الراشدة وبدأ الملك العضوض.

جـ- دولة الإسلام في عهد الملك العضوض:

بدأ ذلك بتنازل الحسن رضي الله عنه لمعاوية الذي قاتل حتى يصل إلى السلطة

---

(١) سورة المائدة، آية ٣.

ويتملك على الأمة ويَحْرِف الدولة من دولة الراشدين إلى عهد الملك العضوض الذي أخبر عنه ﷺ[1]، وفُتِحت في تلك العهود البلدان، وفُتح على المسلمين زهرة الحياة الدنيا التي خاف منها النبي عليه الصلاة والسلام على أمته، والمراد بالخوف: خوفه من تغير ما تركهم عليه بانزلاق الخلافة إلى ملك، فلم يُرَ عليه الصلاة والسلام مستجمعاً ضاحكاً منذ أن رأى في منامه من نزوا على منبره كما تنزو القردة[2]؛ وذلك لا يكون إلا بانحراف الخلافة إلى الملك العضوض، وكذلك خوفه من انفتاح الدنيا عليهم وإشغالها لهم عن حياة التزكية (التصوف)، أي: عن بقاء الركن الثالث من أركان الدين دون أن تشوبه هذه الشوائب، فقال عليه الصلاة والسلام مخبراً: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتلهيكم كما ألهتهم» متفق عليه[3].

---

(١) وذلك فيما أخرجه أحمد وأصحاب السنن وصححه ابن حبان وغيره من حديث سفينة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك». وروى البزار وأبو يعلى والطيالسي في مسانيدهم والبيهقي في السنن عن أبي عبيدة ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن الله عز وجل بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة ثم كائن خلافة ورحمة ثم كائن ملكاً عضوضاً ثم كائن عتواً وجبرية وفساداً في الأمة يستحلون الحرير والخمور والفروج والفساد في الأرض ينصرون على ذلك ويرزقون أبداً حتى يلقوا الله».

(٢) فقد روى أبو يعلى في مسنده والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إني أريت في منامي كأن بني الحكم بن أبي العاص ينزون على منبري كما تنزو القردة، قال: فما رؤي النبي ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى توفي». قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير مصعب بن عبد الله بن الزبير وهو ثقة.

(٣) واللفظ للبخاري، والرواية الأخرى في الصحيحين: «وتهلككم كما أهلكتهم».

وفي هذا الخِضَمِّ قام أهل العلم بتقعيد العلوم وتسميتها؛ خوفاً عليها من الضياع، فقُعِّد النحو في عهد الإمام علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما خاف ضياع اللسان العربي ممن دخل في الإسلام من الأعاجم، وصيانة للسان العرب من اللحن لما وجده قد بدأ يظهر في عهده، وهو أمر معروف.

وكذلك قعَّد أهل العقائد عقائد الإسلام حفاظاً عليها ممن أتى بإشكالات أو تشكيكات في عقائد المسلمين وألَّفوا فيها الكتب، وهكذا علماء الأحكام قعَّدوا لهذا العلم وسمَّوه باسم علم الفقه خوفاً عليه من الضياع وألَّفوا فيه ودوَّنوه وعلَّموه ونشروه، وهكذا في حفظ القرآن تناقلوه وضبطوه بقراءاته وسمَّوه بعلم القراءات، وهكذا المُحَدِّثون كتبوا الحديث وحفظوه ودوَّنوا فيه وكتبوا الكتب في هذا الفن من سند الحديث ومتنه وكتبوا في رجاله، وهكذا في سائر العلوم.

ولما أوغل الناس في الحياة المادية وافتتنوا بزهرة الحياة الدنيا، خشي علماء الركن الثالث من أركان الدين، فقعَّدوا لهذا العلم أي: علم التزكية، واشتُهِر أقوام به كما اشتُهِر أقوام بالفقه وعلم العقائد والحديث، فسُمُّوا بالفقهاء والمتكلمين والمحدثين، وسُمُّوا هؤلاء بالصوفية.

يقول الأستاذ يوسف خطَّار: [إن الإسلام الحقيقي هو اتباعٌ لما جاء به سيدنا محمد ﷺ عن الله ﷻ، والإيمان به مع الإذعان، وقد نقلت إلينا تعاليم الإسلام من النبي ﷺ عن طريق صحابته الذين أخذوا عنه الشريعة، وكذلك أخذها عنهم الذين تبعوهم وسُمُّوا باسم التابعين، وهم الذين صحبوا من صحب رسول الله ﷺ، وقد نقلت عنهم الوراثة النبوية العلمية، فأخذ عنهم تابعو التابعين، ودوَّنوا الشريعة، وتفرَّد بها

العلماء، فمنهم من تخصص بالحديث النبوي الشريف وأصبح من الحفاظ، وكذلك تفرَّد أناس بعلوم الآلة (النحو والصرف والبلاغة). وتفرَّد بعضهم بعلم التفسير، وتفرَّد بعضهم بعلم الفقه، وتفرَّد بعضهم بعلم التربية والسلوك والعمل.

وقد دُوِّنت العلوم المنقولة وسميت بأسماء ومصطلحات: فسُمِّي من اشتغل بالحديث الشريف (محدِّثاً)، ومن اشتغل بالنحو (نَحْوِيّاً)، ومن اشتغل بالتفسير (مفسِّراً)، ومن اشتغل بالفقه (فقيهاً)، ومن اشتغل بالتربية والسلوك في طريق الله (صوفيّاً).

كل هذه الأسماء لم تكن على عهد رسول الله ﷺ، وما هي إلا مصطلحات لأسماء العلوم الشرعية التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ، وكل من تسمى بواحد من هذه الأسماء وغيرها لايخرج عن تسميته مسلماً، وليس كلُّ اسم أو وصف لم يأتِ في القرآن الكريم أو السنة الشريفة يحرم التسمي به بل هو جائز شرعاً، فقد سمَّى الله ﷻ المسلمين بأسماء عديدة (السابقين، المقربين، الصادقين، الشهداء، الصالحين، الأولين، الآخرين، المخبتين..) فكلُّ اسمٍ ذُكِر له اشتقاق] اهـ[1].

ومما تقدم نستطيع أن نجعل حاصلاً نجيب فيه عن سؤال يتكرر، ويحصل في الإجابة عليه كيد عظيم لأمة الإسلام عندما يجيب عليه الخصوم من المستشرقين الذين يكيدون للإسلام في ركنه الثالث، وللأسف تلقَّفه عنهم أولئك الذين تخرجوا من مدارسهم أو كانت لهم مآرب في أنفسهم.

وهذا السؤال: متى نشأ التصوف؟ وما معنى كلمة الصوفية؟

---

(١) الموسوعة اليوسفية، للأستاذ الدكتور يوسف خطَّار، ص٩-١٠.

ونترك الإجابة عن السؤال في شقِّه الأول للأستاذ أسعد الخطيب فهو يقول عن فترة نشأة التصوف:[والمستقرئ لتاريخ أمتنا الإسلامية يلاحظ أنها واجهت خلال مراحل سيرها الطويل نقطة تحول كبيرة، وهو خطر المادية الجارفة. فقد جاء عصر الفتوح وجاءت معه الغنائم الوفيرة، وتحقق ما كان يخوِّف منه ﷺ: «وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكني أخاف عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها» متفق عليه.

ولكن الله لطف بهذه الأمة، فقيَّض لها رجالاً صادقين ودعاة مخلصين، لم تستعبدهم الشهوات، ولم تغرَّهم الدنيا بزخارفها، ولم توقعهم بعلائقها.. واجهوا هذا التيار الدنيويَّ بكلِّ ما عندهم من قوة. وسُرعان ما تكوَّن في كل بلد فئة من الناس أصبحوا يُعْرفون بالزهاد والعُبّاد، ومن ثَمَّ بالصوفية.

ويوضح ذلك ابن خلدون عند كلامه على نشوء علم التصوف قائلاً: [وكان ذلك -أي: التصوف- عامّاً في الصحابة والسلف -أقول: كما كان الفقه عامّاً فيهم؛ لأنهم تعلموه من النبي ﷺ، وكذلك القراءة للقرآن وتعلُّم أحرفه، وكذلك الحديث وحفظه، وهكذا كل فنون الشريعة، ثم قُعِّدت العلوم وسُمِّيت بمسميات كما أسلفنا- فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة][(1)].

وبدأ هؤلاء يستقطبون طلاَّب الآخرة والراغبين في الوصول إلى الله عن طريق الجهاد الأكبر، الذي ركّز عليه القرآن مراراً، والأحاديث

---

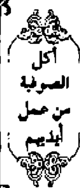
(١) تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ ٢٠١٠م، ١/ ٣٨١.

النبوية الشريفة في أكثر من موضع. وقد كان لمواعظهم وقعٌ عجيبٌ في النفوس حتى قيل عن أبي القاسم القشيري (٣٧٦-٤٦٥هـ): [لو قرع الصخر بسوط تخويفه لذاب، ولو رُبِط إبليس في مجلسه لتاب][١].

وأصبحت أخبارهم فيما بعد تذكرةً وحافزاً للهمم الفاترة، واشتد التعلق بمنهاجهم، منهاج الزهد والورع والعبادة والإخلاص الذي رسموه مع مرور الزمن، وتزايد الفتن، والإقبال على الدنيا.

فعملوا على معارك الاستيلاء على القلوب القاسية حتى تلين، والانتصار على الأحقاد والبغضاء حتى تزول، وابتداع طرق الصلاح والإصلاح والفلاح، والنماذج الإنسانية الفاضلة، بلغات القلب الخاصة.

وقد تركت كتبهم وأقوالهم المتناثرة أثراً عميقاً في النفوس، واستطاعوا -مع من سار على منوالهم- أن يحافظوا على رونق الإسلام وبهجته وروحانيته أكثر من عشرة قرون.



ومما هو حريٌّ بالقارئ أن يعرف من أخبار هؤلاء الصوفية أنهم كانوا علماء ربانيين فقهوا عن الله تعالى آياته الكريمة، وكانوا يعيشون بما فتح الله عليهم من أبواب الرزق، فمنهم المعلِّم والنجَّار والحدَّاد والزجَّاج والخوَّاص والدبَّاغ والنسَّاج، وألقابهم تدلُّ عليهم، والفرق الوحيد بينهم وبين غيرهم أنَّ الدنيا كانت في أيديهم ولم تكن في قلوبهم، وقد استوى عندهم الذهب والتراب.

وهم يحرصون بدقة متناهية على العمل بالقرآن والسنة وما كان عليه

---

(١) قاله أبو الحسن الباخرزي (ت٤٦٧هـ) في كتابه (دمية القصر وعصرة أهل العصر) في ترجمة أبي القاسم القشيري، دار الجيل-بيروت، ط١ ١٤١٤هـ، ٢/ ٩٩٣.

التزام الصوفية بالكتاب والسنة

الصوفية أصحاب الركن الثالث

زهد الصوفية في الدنيا

السلف الصالح. وحسبُك كلام أبي حامد الغزالي: [أن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة][1]. وقول إمام القوم الجنيد (ت٢٩٧هـ): [علمنا هذا مشيّد بالكتاب والسنّة، فمن لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث، ويتفقه، لا يقتدى به[2]] اهـ[3].

فإذا عرفت ذلك عرفت أن روح الإسلام وحقيقته عند هؤلاء القوم أصحاب مدرسة الركن الثالث من أركان الدين، وهو الإحسان الذي شيدوا بناءه وحددوا أركانه ومشوا فيه على قدم نبيهم وأصحابه ومن بعدهم، فكانوا أسوداً في ميادين الوغى يصدُّون عن دين الله بقلوب مفعمة بالإيمان متمسكة بالقرآن والسنة وهدي الصحابة والأئمة، طهَّروا قلوبهم من دنس الأنجاس، وبنوا حياتهم على الزهد الذي مصدره القلب المتعلق بالله تعالى لا بالدنيا ولا شهواتها، وهم يملكون الدنيا لكن بأيديهم ولم تكن لها في قلوبهم مكان، عاشوا من أجل الدين ولم يعيشوا من أجل الدنيا، بل علموا أنها سبيلٌ للطريق الأقوم فسلكوه، وعمروها على هذا الأساس، فلم تكن عندهم غاية كما هي عند غيرهم، بل هي وسيلة.

فساروا بهذا المفهوم للحياة الذي لا يقوم به إلا الرجال الذين ﴿صَدَقُواْ

---

(١) المنقذ من الضلال، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط٥ ٢٠١٠م، ص٦٢.

(٢) حلية الأولياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط١ ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، ١٠/٢١٦.

(٣) البطولة والفداء عند الصوفية، للأستاذ أسعد الخطيب، دار التقوى-دمشق، ط٥، ص٣٥-٣٧، وقد أجاد فيه وأفاد في موضوعه.

مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡـهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلًا ﴾[1]، كما هو ديدن السلف والرعيل الأول الذين ساروا على هذا المفهوم ونهجوا ذلك النهج، حتى أصبحوا متحققين بمعنى الرجولة التي ربَّى عليها النبي ﷺ أتباعه، الذين ما خشي عليهم ولا على الأمة بعدهم إلا زهرة الحياة الدنيا أن يتخذوها بعد فتحها عليهم غاية يُتصارع عليها، كما هو واقع الميل بالأمة في الجنوح إليها في جميع مجالات الحياة لما رأى الكثير منهم أنها غاية، واتخذها أولئك الرجال وسيلة استمداداً من كتاب ربهم القائل: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾[2].

وهو الميزان الحق الذي ربَّى النبي عليه الصلاة والسلام أتباعه عليه، فتربوا على النسك والزهد والورع والتقوى والاستقامة، وهي الموروث الأعظم من الدين، إذ هي لُبُّه وحقيقته والتي عناها النبيُّ في قوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» رواه مسلم، هذا هو المنهج الذي تربى عليه أمثال هؤلاء الرجال من عهد النبوة إلى من بعدهم حتى أسَّسوا له وقعَّدوا كما قُعِّدت سائر العلوم ظاهرها كما في الركن الأول من أركان الدين وهو الإسلام، أو باطنها كما في الركن الثاني من أركان الدين وهو الإيمان، أو روحها وحقيقتها كما هو في الركن الثالث من أركان الدين وهو الإحسان؛ لأن حقيقة الركن الأول يشهده الإنسان من نفسه وغيره، والركن الثاني لا يشهده الغير ولا تدركه إلا النفس التي ينبعث منها ذلك الركن، وأما الركن الثالث فهو سرُّ المعاملة ما بين العبد وربه.

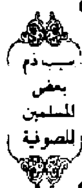
---

(١) سورة الأحزاب، آية ٢٣.

(٢) سورة النور، آية ٣٧.

ولا بد لتحقق العبد بهذا الركن من أن يسير على سير الرجال الذين ذكرهم الله في كتابه واقتدوا بالنبي ﷺ في أقواله وأفعاله، وتحققوا بما غرسه في قلوب أصحابه وأتباعه وتركه لأمته، وأن ينهج ذلك المنهج، وهو منهج صعب لا يركبه إلا من تربى وتزكى وجاهد وسار في دروب المخالفة للهوى والنفس والشيطان والقذرة الدنيا.

وقد تفرد رجالات التصوف بما تحقق في الرعيل الأول وامتازوا بذلك، وهو طريق لا يسلكه إلا طُلَّاب الآخرة، ويبقى الآخرون في الجانب الآخر لا يستطيعون الوصول إلى ما وصل إليه أهل التربية، فما كان منهم إلا أن رموهم بما رموهم به من تُرَّهات الأقوال، التي لا تَنُمُّ إلا عن قلوب مريضة متعلقة بالدنيا الحقيرة التي أوسعوا لها المجال في كل شيء، فأحسنوه وأتقنوه وأرادوا من الغير أن يقف لهم موقف الاعتراف والتقدير والتبعية والانقياد، فلم يدركوا ذلك؛ إذ كان ذلك كلُّه لأهل الرجولة ممن سار على نهج التزكية المسمَّى بالتصوف، وهم في حقيقة ذلك بعيدون كلَّ البعد عن مثل ما أراده أولئك من حب التبعية.



وما دروا أن أولئك القوم لما أحبوا الله تعالى قذف في قلوب عباده محبتهم، وارتضت الأمة نهجهم، نَهْجَ جَمْعِ أركان الدين كلها، وتعلقوا بهم وأذعنوا لهم ومشوا على منهجهم حسب الاستطاعة، مع كامل التعلق والمحبة لهم، فأرادوا أن يحجبوا غيرهم عنهم كما حُجِبوا هم، فرموهم بكثير من الأمور تنفيراً لمجتمعات الإسلام عنهم، ونصبوا لهم العداوة والبغضاء حسداً من عند أنفسهم، والتي ذكرها الله في كتابه بقوله: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ

إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾[1].

وأما الغير -أعني بهم أعداء الأمة من الكفار والمنافقين- فقد علموا مقدار أولئك الرجال وتأثيرهم على الأمة، وتصدي هؤلاء الأفذاذ لهم في ميادين القتال والجهاد والثقافة والعلم وغير ذلك في جميع شؤون الحياة، فكان هدفهم الأول النيل من هداة الأمة من أهل التصوف الذين يبينون زيفهم ويفضحون أمرهم ويتصدون لهم، فما كان منهم إلا أن أطلقوا عليهم ما ردَّده بعض أبناء الأمة من الأمور التي ألصقوها بهم.

يقول أسعد الخطيب: [على أن تركيز الصوفية على جهاد النفس، وردِّ غوائلها، والبعد عن مواطن الفتن، وأصحاب الأهواء وأهل الدنيا، لا يُبَرِّر للمستشرقين ومن حام في دائرتهم، من بعض الباحثين العرب المعاصرين، نعت التصوف بالسلبية، والضعف والخنوع، والتهاون في صدّ الغزاة، ومقارعة المعتدين.

ونحن لا يهمنا كثيراً وصف هؤلاء المستشرقين، وهجومهم على التصوف ورجاله، لأننا خبرناهم طويلاً، لقد تخصَّصوا في علوم قلب الحقائق وتحريفها، وتزييف تواريخ الشعوب والعظماء، بل حتى في بعض الأحيان محوها.

بَيْدَ أن اللوم يقع على من سلّم لافتراءاتهم، وأطلق العنان للسانه وقلمه، في بثِّ إشاعات مغرضة لا أساس لها من الصحة، كل ذلك دون مناقشة علمية، وتحليل ودراسة عميقة.

ولقد خُدع بهؤلاء أقوام، اغتروا بزخارف أقوالهم، ومن ثَم تسمموا

---

(١) سورة النساء، آية ٥٤.

من أفكارهم، وانجرفوا في تيار محاربة الصوفية. وربما عُذر بعضهم لسذاجتهم، أو لأنه دعّم هذه الصورة القاتمة عن التصوف أعمالُ وسلوك بعض الدخلاء المنحرفين من أدعياء الطريق الصوفي] اهـ[1].

قد يندس في الصوفية من ليس منهم

ومما يجب معرفته أنه يوجد في كلِّ قوم من يندس بينهم زيفاً وعدواناً، ولكن المنصف من لا يتصيد ذلك، فكم كان في صفوف أهل العلم ممن اندسَّ في صفوفهم وتجلبب بجلبابهم وهو ليس منهم؛ لغرض دنيا يصيبها أو رياسة يريدها أو جاه يحبه. وحديث مهاجر أم قيس معروف، فإن أعظم الناس قدراً في عهده عليه الصلاة والسلام المهاجرون الذين هاجروا في سبيل الله، فاندسَّ بينهم من لم يكن منهم، وأخبر عنه النبي ﷺ في الحديث الآنف، وكذلك الأنصار الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه وامتدحهم، فاندسَّ في صفوفهم من هم ليس منهم وهم المنافقون، فلا يأتي من يعيب على تلاميذ محمد عليه الصلاة والسلام ويأخذ شاهداً على ذلك صوراً من حياة أولئك المنافقين ويسقطها على ذلك المجتمع أصحاب الرعيل الأول الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكانوا أصحاباً لرسول الهدى عليه الصلاة والسلام فيشين ذلك المجتمعَ بهم، ولو فعل لكان مُغْرِضاً.

وهكذا الذين فعلوا ذلك مع أهل التزكية -أعني بهم: أهل التصوف الذي فشا في ربوع المعمورة من القرون الأولى- حيث اندسَّ في صفوفهم من اندس، فجاء أولئك المغرضون وجعلوا صور أولئك المندسين -كما تقدم- هي الصوفية؛ تنفيراً للغير عنهم، وكيداً لأهل الله تعالى الحافظين للركن الثالث من أركان الدين، والذين هم في الواقع جهابذة العلماء وحماة الشرع والحافظون للناس في هذه الأمة الوجهة الصحيحة؛ حيث

(١) البطولة والفداء عند الصوفية، للأستاذ أسعد الخطيب، ص ٣٧-٣٨.

أقاموا منهج السلوك والآداب على أرفع مستوى، وسموا بالروح إلى أعلى ذراها، وجعلوها تتعلق بخالقها في جميع أطوار حياتها، وجعلوا وجهتها الخالق لا المخلوق، والدار الآخرة لا الدار الفانية، مع التوازن الكامل الشامل في شؤون الحياة كلها، والتعايش مع جميع الأمم مع فكر ثاقب وأدب جم وحضارة متألقة، جعلت الأمم تنساق للدخول في دين الله لما تراه من عظيم الأخلاق وطهارة الأنفس التي تتعامل مع الجميع بالمحبة واحترام إنسانية الإنسان، وأنها المنقذة له لا المهلكة، مع العزة وعدم الخنوع في حياتها كلها؛ لأنها لا تعلق لها بالحياة من أجل الدنيا التي تذل صاحبها، حيث يجعلها غاية فيذل للوسيلة ويخنع ويصانع ويداري على حساب روحه ودينه.

مدح القرآن للتزكية وأهلها

وكم في القرآن من آيات توضح هذا المعنى، بل آيات التربية والتزكية تصرخ دائماً بطلاب الدنيا والعاملين من أجلها، والذين بنوا حياتهم وأمورهم كلها على غاية الوصول إلى هذه الحقيرة، وامتدحت أهل التزكية في أوضح الآيات الذين يعملون ولا يريدون إلا وجه الله والدار الآخرة، وهذه أسمى وأرفع ميزة للقوم من أهل التصوف، والذين جعلتهم تربيتهم بمكان رفيع وشأوٍ عظيم لا يدركه أهل القصور والخلود والإخلاد للحياة الدنيا، وجعلتهم أئمة يهدون بأمر الله، والناس بهم مقتدون، ولذكرهم يرددون، ولهم يحترمون ويحبون ويتقربون، لأن من كان هذا حاله كان من الله قريباً، ووضع الله له المحبة في قلوب عباده الذين لم تكن لهم تعبئة فكرية ضد أهل الله تعالى.

التعبئة الفكرية ضد الصوفية

والتعبئة هنا من أعداء الإسلام الذين عرفوا قدر القوم من أهل التصوف، وكم لهم من تأثير على المجتمعات، سواء أكانت مسلمة

أو غيرها. أما المسلمة فيأخذون بأيديهم للطريق الحق والقيام بالدين بأركانه الثلاثة، وأما غير المسلمة فبدعوتهم عملياً إلى الدخول في هذا الدين العظيم دين المحبة والسلام.

أو تكون التعبئة لمجتمعات المسلمين من أبناء الإسلام الذين ناصبوا القوم العداء، فيتكلمون على مثالب لهم صباح مساء ينفرون الناس عنهم؛ لأنهم لن يستطيعوا أن يبلغوا مبالغ أولئك الرجال الأفذاذ العاملين للدار الآخرة؛ لأنهم -أعني: أهل التعبئة أولئك- إنما قام ذلك عندهم لنزعةٍ للرياسة والسؤدد على المجتمع المسلم، عبر تقمصهم العلم البعيد جداً عن العمل الذي تكتنفه التربية والسلوك والسير إلى الله تعالى، بل أعمالهم لكسب أمور الدنيا بجميع أشكالها وصورها، أو تقليداً لأعداء الإسلام، أو لنقص علومهم ومعلومهم عن أهل الله تعالى، فتجد أحدهم يتكلم ويهاجم أهل التصوف، ولو قلت له: ماذا تنقم على القوم؟ لما درى ما يجيب، أو أجاب بما يُمْلَى عليه من مكررات المقذوف الذي يقذفه أهل الفرقة والتحريش والتخريب لإبعاد المسلمين عن صفو دينهم وكمال ارتباطهم بالله تعالى، وهي أمور لا تثبت عند البحث والتحري وعند طلاب العلم فضلاً عن العلماء الذين عرفوا نشأة التصوف في أمة الإسلام.

وحاصل ما تقدَّم قد حصَّله الأستاذ محمد هاشم برهاني حيث قال: [وإذا كانت الخصوم تستهدف أول ما تستهدف الحصون والمعاقل؛ لتأتي على أعدائها من الأساس وتضربهم الضربات القاتلة، فإن معسكر الشر الذي يقوده الشيطان استهدف في حربه مراكز القوة في الإسلام، وتوجه إلى الكثير من قواعده وصروحه المتمثلة بالقرآن والسنة والفقه

أولاً، وبالأعلام والرموز والقيادات التاريخية ثانياً، وبالمبادئ والقواعد والمُثُل العليا ثالثاً.

ولكنه وبفضل الله تبارك وتعالى الذي اصطفى هذا الدين واختاره منهجاً لعباده وسبيلاً للوصول إلى مرضاته، وبفضل تحصينه وعصمته وحفظه من التبديل والتغيير: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1]، وبفضل الإعجاز والتفرد والسبق في منهجه السوي الناظم لشؤون الإنسان والكون والحياة على اختلاف العصور وكرِّ الدهور، ارتدت كل محاولات أهل الباطل خائبة مدحورة وظل الإسلام شامخاً رافع الرأس، كالطود الراسي يتحدى الأعاصير ويهزأ بالعواصف ويصد الأمواج المتلاحقة، كالسماء فوق الأرض لو تحول الناس كنَّاسين يثيرون من غبار هذه على تلك، لما كان مرجع الغبار إلا عليهم ولبقيت السماء صافية تتلألأ.

والتصوف الذي يعتبر روح الإسلام الحقيقي وسرَّ حياته، وواحداً من أعظم حصونه وقلاعه، كان نصيبه من سهام أعداء الإسلام وافتراءاتهم الحظ الأوفر، لأنه ينتهج مناهج الإحسان، ويحرص على كمال العبودية للرحمن، ويربط بإحكام بين أعمال الإسلام الظاهرة وقواعد الإيمان الباطنة، فلا ينفك أحدهما عن الآخر، ويرسم الطريق العملية التي توصل الإنسان إلى أرقى درجات الكمال عقيدةً وخلقاً وسلوكاً، ويخلّص سره من الأمراض المهلكة والآفات المردية، ويغرس الرأفة والرحمة والشفقة على الخلق باعتبارهم عيال الله، وأحبُّهم إلى الله تعالى أنفعهم لعياله، فلا عتوَّ ولا استكبار ولا انحراف ولا عصيان.

---

(١) سورة الحجر، آية ٩.

ومن هنا قلنا بكل ثقة واعتزاز: إن التصوف روح الإسلام وقلبه النابض، لا يقبل من الأعمال ظاهرها مجرداً عن بواطنها، ويرفض الحركات الشكلية التي لا روح فيها ولا حياة. ومن هنا -أيضاً- كان الجهاد الأصغر الذي يضع المسلم في خط المواجهة أمام خصومه وأعداءه متأخراً عن الجهاد الأكبر الذي يتناول عيوب النفس وأمراضها الباطنة، فما لم يحطم الإنسان أصنام الشهوات والهوى المنصوبة بكثرة على عرش قلبه، فإنه لا يملك أن يتحرك خطوة واحدة لتحطيم أيِّ صنم من الحجارة يُعبَد من دون الله على أرضه، وما لم يُغيِّر المنكر المستعصي في داخله فلا يستطيع أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر في ظاهره ومن حوله.

ونقول أيضاً:

بالحكمة والأخلاق والمعاملة الطيبة والقدوة الحسنة وبالرفق بالعدو قبل الصديق دخل الملايين من عبّاد الأوثان في إفريقيا الإسلام طائعين مختارين. وبالصدق والإخلاص والمحبة والإشفاق على عباد الله وخلقه أقبل الملايين من أهل الشرك على الإسلام في شرقي آسيا. وبمثل هذا وذاك يقبل المئات بل الآلاف من الأوربيين والأمريكان اليوم على الإسلام.

وإذا كان عدد المسلمين في العالم اليوم يتجاوز المليار والربع، فإن أكثر من نصفهم إنما دخل الإسلام بالكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة وصدق المواقف والتعامل.

وإذا كنا نرى اليوم تراجعاً في أحوال المسلمين، وضعفاً في مواقعهم، وتمزقاً في وحدتهم، وجهلاً متفشياً في أوساطهم، وتخاذلاً في مواقفهم،

فلأنهم فقدوا روح الإسلام وجوهره، ولم يبقَ فيهم إلا الانتساب الشكلي والولاء الاسمي له. وكل ذلك بسبب الحملات العنيفة، والمكائد الخبيثة، والهجمات المتوالية على منهج التصوف وأهله.

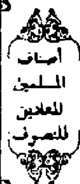
ولا غرابة أن يحمل راية هذه الحملة الظالمة المسعورة الكفرة والمشركون، لأن هذا شأنهم وتلك طبيعتهم بيّنها لنا المولى سبحانه بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾[1].

ولكن الغرابة كل الغرابة أن ينضوي تحت لواء هذه الحملة جماعةٌ من المسلمين أنفسهم، سلّوا سيوفهم المادية والمعنوية لحرب التصوف، ووجهوا سهامهم المسمومة لضربه، وشحذوا حرابهم الماضية لطعنه. ومن المؤسف حقاً أن يعاني التصوف من هؤلاء مثل ما يعاني من الكفرة والمشركين، بل لا نعدو الحقيقة إن قلنا: إن مضرة التصوف من كيد هؤلاء وهم مسلمون أدهى، ومصيبته بهم أمرّ.

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

وهؤلاء أصناف ومراتب تبعاً لمنشأ عداوتهم وطبيعة تعاملهم معه:

- فصنف معاندون حاقدون جفّت قلوبهم من الأنوار، وانقطعت أفئدتهم عن عالم الأسرار، لأنهم غلاظ الأفئدة قساة الأكباد، لم يجد الحق إلى قلوبهم سبيلاً، فوقفوا عند الظواهر ولم يحفلوا بالمعاني، فهم من المرضى الذين يصدق فيهم قول البوصيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:



قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

- وصنف اغتروا بكلام الأعداء، وتعلقت بأذهانهم جملة من

(١) سورة آل عمران، آية ١١٨.

الشبهات، فرددوها بغباء الببغاء، ونشروها بغفلة السفهاء، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتمحيص ولا مهلة التحقيق والتدقيق، فوقعوا بجهلهم في فخِّ الأعداء، وانحازوا -بتقصيرهم- إلى معسكر أهل الباطل.

• وصنف من المُدَّعِين المتسبين إلى التصوف بالجهل والمظهر، فلم يعرفوا حقيقته لأنهم لم يأخذوه من مصادره الصحيحة، ولم يرشفوا من معينه الصافي، فوقعوا فرائس الخطأ وسوء التقدير، وتعلقوا بالأوهام، وعاشوا في الظنون.

وفيهم يقول المحقِّقون من أهل التصوف: كل من ترسَّم برسوم أهل التصوف وأشار إلى نفسه بأن له قدماً في هذا الميدان، أو توهَّم أنه متمسك ببعض آداب هذه الطائفة ولم يُحْكِم أساسه على ثلاثة أشياء فهو مخدوع، ولو مشى في الهواء ونطق بالحكمة أو وقع له قبول عند الخاصة أو العامة.

وهذه الثلاثة الأشياء أولها: اجتناب جميع المحارم كبيرها وصغيرها، والثاني: أداء جميع الفرائض عسيرها ويسيرها، والثالث: ترك الدنيا على أهل الدنيا قليلها وكثيرها إلا ما لا بدَّ للمؤمن منها.

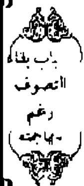
إلى أن قال أيضاً: وصنف خُدِعوا بما رأوه من جهالات المدعين الذين أحدثوا في التصوف ما ليس منه، وأشاعوا فيه ألواناً من الضلالات والانحرافات. أو بما قرأوه في بعض كتب التصوف من عبارات فهموها على غير مقصودها، أو أباطيل ومفتريات مدسوسة تعلّقوا بها.

فكانت أحوال المدعين المنكرة، ومفاهيمهم الخاطئة، وتصرفاتهم المنحرفة، والعبارات الغريبة الدخيلة، أهدافاً مكشوفة ومرتكزات

واضحة، يُهَاجَم التصوف من خلالها، ويُحكم عليه بالمروق من الدين اعتماداً عليها، والتصوف بريء منها ومن أصحابها.

ونقول هنا: لو أن مذهباً من المذاهب الفكرية، أو فلسفة من الفلسفات الوضعية، أو صيغة من الصيغ الاجتماعية تعرضت لمثل ما تعرض له التصوف من طعنات مسمومة وحملات مركزة لكان كافياً لِأَنْ يأتي عليه من القواعد، ويجعله أثراً بعد عين.

لكن التصوف مع كل ذلك ظل محفوظاً بحفظ الله لدينه، وبقي حياً بحياة الإسلام المؤيَّد بنصرة الله تبارك وتعالى. ولعل من أبرز مؤيدات البقاء وعناصر الثبات أموراً منها:



• جوهر التصوف الصافي المعبِّر عن حقيقة الإسلام، الجامع لأركان الدين الثلاثة: (الإيمان والإسلام والإحسان)، فلا يكمل الإيمان بلا إسلام، ولا يصح إسلام بلا إيمان، ولا يُبْلَغ حقيقة الكمال إلا بجمعهما بالإحسان.

يقول الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: [من تفقه ولم يتصوف فقد تَفَسَّق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقَّق][1].

• رموزه الشامخة في العلم والجهاد والخُلق وحسن المعاملة الذين يكشفون لكل منصف أنهم المعبِّرون بصدق عن صفاء التوحيد وكمال الخُلُق في التعامل مع الخالق والمخلوق] اهـ[2].

---

(١) انظر: قواعد التصوف للشيخ زروق، ص٢٢. ونقله عنه الشيخ محمد بن إبراهيم التتائي في شرحه على نظم مقدمة ابن رشد، ١/ ٦. وذكره ملا علي قاري في شرح عين العلم وزين الحلم، ١/ ٣٣. وكذا العلامة علي العدوي في حاشيته على شرح الإمام الزرقاني على متن العزية في الفقه المالكي، ٣/ ١٩٥.

(٢) من مقدمة الأستاذ محمد برهاني على كتاب (البطولة والفداء عند الصوفية) للأستاذ

كيف نشأ التصوف

يقول الحافظ محمد صديق الغماري -رحمه الله تعالى- عندما سُئل عن أول من أسَّس التصوف؟ فأجاب: [أما أول من أسَّس الطريقة فلتعلم أن الطريقة أسَّسها الوحي السماوي في جملة ما أسَّس من الدين المحمدي؛ إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة، التي جعلها النبي ﷺ -بعد ما بيَّنها واحداً واحداً- ديناً بقوله: «هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم»[1] وهو الإسلام والإيمان والإحسان. فالإسلام طاعة وعبادة، والإيمان نور وعقيدة، والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ثم قال السيد محمد صديق الغماري: فإنه كما في الحديث -أي: حديث جبريل المشهور- الدين عبارة عن الأركان الثلاثة، فمن أخلَّ بهذا المقام (الإحسان) فدينه ناقص بلا شك؛ لتركه ركناً من أركانه. فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان]اهـ[2].

لم يعترض على التصوف إلا المتأخرون

وبعد هذا الإيضاح الذي يعلمه العلماء و طلابهم منذ قِدَم الزمن، يردد أولئك العابثون المحرِّشون الذين يشعلون الفتن في الدين؛ أن التصوف لم يكن في عهد النبي ﷺ ولا الصحابة ولا التابعين.

والعجيب جداً أن مثل هذا الكلام والاعتراض على أهل التصوف

أسعد الخطيب، ص ١٨-٢٢.

(١) رواه مسلم وغيره.

(٢) انظر (الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية) للأستاذ الدكتور يوسف خطَّار، ص١٦ نقلاً عن رسالة المحدث محمد صديق الغماري المسماة: (الانتصار لطريق الصوفية) ص٦.

جاؤوا به بعد القرن السادس الهجري، أي: أنه لم يكن في قرن الصحابة ولا التابعين ولا تابعي التابعين -أي: في الثلاثة القرون المفضَّلة الأولى- ولا من بعدهم إلى القرن السادس، رغم أن التصوف قد نشأ في ديننا منذ أن بعث الله محمداً ﷺ كما قد تقدم في كلامنا، وكما سنذكره واضحاً من كلام الدكتور أحمد علوش حيث قال: [قد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم ظهور هذه الدعوة إلا بعد عهد الصحابة والتابعين؟

سبب عدم شيوع علم التصوف إلا متأخراً

والجواب عن هذا: أنه لم تكن ثمَّة حاجة إليها في العصر الأول؛ لأن أهل ذاك العصر كانوا أهْل تقى وورع وأرباب مجاهدة وإقبال على العبادة بطبيعتهم وبحكم قرب اتصالهم برسول الله ﷺ، كانوا يتسابقون ويتبادرون في الاقتداء به في ذلك كله، فلم يكن ثمَّة ما يدعو إلى تلقينهم علماً يرشدهم إلى أمرٍ هم قائمون به فعلاً، وإنما مثلهم في ذلك كله كمثل العربي القُحّ يعرف اللغة العربية بالتوارث كابراً عن كابر، حتى إنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون أن يعرف شيئاً من قواعد اللغة والإعراب والنظم والقريض، فمثل هذا لا يلزمه أن يتعلم النحو ودروس البلاغة، ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تفشي اللحن وضعف التعبير، أو لمن يريد من الأجانب أن يتفهمها ويتعرف عليها، أو عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي العصور في أوقاتها المناسبة.

فالصحابة والتابعون -وإن لم يَتَسَمَّوا باسم المتصوفين- كانوا صوفيين فعلاً وإن لم يكونوا كذلك اسماً، وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه لا لنفسه، ويتحلى بالزهد وملازمة العبودية والإقبال

على الله بالروح والقلب في جميع الأوقات، وسائر الكمالات التي وصل بها الصحابة والتابعون من حيث الرقيِّ الروحي إلى أسمى الدرجات، فهم لم يكتفوا بالإقرار في عقائد الإيمان والقيام بفروض الإسلام بل قرنوا الإقرار بالتذوق والوجدان، وزادوا على الفروض: الإتيان بكل ما استحبَّه الرسول ﷺ من نوافل العبادات، وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن الـمُحَرَّمات، حتى استنارت بصائرهم وتفجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم، وفاضت الأسرار الربانية على جوانحهم، وكذلك كان شأن التابعين وتابعي التابعين، وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الإسلام وخيرها على الإطلاق، وقد جاء عن رسول الله ﷺ قوله: «خير القرون قرني هذا فالذي يليه والذي يليه»[1].

فلما تقادم العهد ودخل في حظيرة الإسلام أمم شتى وأجناس عديدة، واتسعت دائرة العلوم، وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص قام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده أكثر من غيره، فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الأول علم الفقه وعلم التوحيد وأصول الدين وعلوم الحديث والتفسير والمنطق ومصطلح الحديث وعلم الأصول والفرائض (الميراث) وغيرها.

وحدث بعد هذه الفترة أن أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية والقلب والهمة، مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا هم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم، ولم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الأخرى إلى تدوين

---

(١) رواه الشيخان بألفاظ منها: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...».

علومهم كما يظن ذلك -خطأً- بعض المستشرقين، بل كان سدّاً للنقص واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط، مما لا بدَّ منه لحصول التعاون على تمهيد أسباب البر والتقوى.] اهـ[1].

سبب تسمية علم التزكية بالتصوف

وبهذا يظهر سبب تسمية أهل الركن الثالث من أركان الدين وهم أهل التزكية والسلوك والإرادة بأهل التصوف، ولا مشاحة في المسميات؛ إذ المسميات أتت في تاريخ الإسلام بعد القرن الأول، لما عُرِف أهل كل فن بفنهم فتسموا به.

لذلك قال الأستاذ يوسف خطار: [والتصوف: لقب اصطلح الناس عليه، والمراد به الشخص المسلم المتمسك بالكتاب والسنة، ومِمَّن عُرِف بالتصوف في الصدر الأول الإسلامي سيدنا أبو ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأنه يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ[2]، ومنهم سيدنا حذيفة بن اليمان، وسيدنا سلمان الفارسي، فقد كان يأكل من عمل يده (كان ينسج الخوص ويبيعه)، ثم جاء من بعدهم الحسن البصري الذي كان يَعِظ الناس ويرشدهم، وقد ربَّى رجالاً منهم مالك بن دينار، ثم جاء بعد ذلك إبراهيم بن أدهم، ثم الإمام الجنيد والقشيري ثم ذو النون المصري المتوفى سنة (٢٤٥هـ).

والتصوف من حيث ذاته عقيدة وخُلُق وجهاد ودعوة، ودعائمه الإسلام والإيمان والإحسان بما فيه المراقبة والمشاهدة ومتابعة القرآن والسنة، وأهدافه التخلي عن كل رذيلة والتحلي بكل فضيلة، والسلوك

---

(١) الموسوعة اليوسفية، للأستاذ الدكتور يوسف خطَّار، ص١٤-١٦.

(٢) وذلك فيما رواه الحاكم في المستدرك عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده» وهو جزء من حديث طويل.

الملتزم بطاعة الله ورسوله، وجهاد النفس، وإصلاح الباطن والإيثار.

ويبدو لمتتبع هذه النِّحْلة السامية أنها مرت بمراحل مختلفة قبل أن تتسمى بهذا الاسم المعروف، فكانت أحوالها تظهر في كل مرحلة باسم معين، وهكذا إلى أن استقرت باسم (التصوف)، وآية ذلك أن الشيخ الأستاذ أبا القاسم القشيري يقول في رسالته الشهيرة (الرسالة القشيرية): [اعلموا رحمكم الله أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتسمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله ﷺ؛ إذ لا أفضلية فوقها، فقد قيل: (الصحابة)، ولما أدرك العصر الثاني سُمِّي من صحب الصحابة: (التابعين)، ورأوا ذلك أشرف تسمية، ثم قيل لمن بعدهم: (أتباع التابعين)، ثم اختلفت وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: (الزهاد والعباد)، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا بأن منهم زهاداً، فانفرد خواصُّ أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم (التصوف)، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر بعد المائتين من الهجرة][1].

ومما يشير أيضا إلى أن اسم التصوف عُرِف بعد القرن الثاني للهجرة ما أورده المسعودي في تاريخه (مروج الذهب ومعادن الجواهر) عن يحيى بن أكثم أن المأمون كان جالساً ذات يوم إذ دخل عليه حاجبه علي بن صالح فقال: يا أمير المؤمنين رجل بالباب عليه ثياب بيض غلاظ يطلب

(١) الرسالة القشيرية، للإمام أبي القاسم القشيري، مطابع مؤسسة دار الشعب-القاهرة، ط١٤٠٩هـ ص٤٢.

الدخول للمناظرة فقال: إنه بعض الصوفية[1]. ومما يشهد لهذا أيضا ما ذكره الكندي في كتاب (ولاة مصر) في حوادث سنة مائتين أنه ظهر بالإسكندرية طائفة يتسمون بالصوفية يأمرون بالمعروف.....الخ[2].

أول من تسمى بالتصوف

ويقول العلامة محمد كرد علي رَحِمَهُ اللَّهُ: وأول من تسمى بالصوفي في أهل السنة أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة (١٥٠هـ)، وكان من النُسَّاك يجيد الكلام وينطق الشعر كما وصفه الحُفَّاظ مثل هاشم الأوقص وصالح بن عبدالله الجليل. ولسنا نهتم كثيراً بمصطلح الكلمة واشتقاقها بقدر اهتمامنا بمضمونها] اهـ[3].



(١) مروج الذهب، لأبي الحسن علي المسعودي، دار الهجرة،ط ١٤٠٩هـ، ٣/ ٤٣٢.
(٢) الولاة والقضاة، لأبي عمر محمدالكِندي المصري، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١ ١٤٢٤هـ ص١٢٣.
(٣) الموسوعة اليوسفية، للأستاذ الدكتور يوسف خطّار، ص١٢-١٤.

شواهد الحال

وشاهد الحال لأهل التصوف قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣﴾[2]، وقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي قوَّامة على أمر الله لا يضرها من خالفها» رواه ابن ماجه وإسناده جيد، وقول الإمام مالك -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى-: [من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق][3].

مدح أئمة الإسلام للتصوف

وما نقل عن الإمام أبي حنيفة -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى-: [أنه كان محباً للصوفية محترماً لهم]، وما نقل أيضاً عن الفقيه الحصفكي صاحب الدر: [أن أبا عليٍّ الدقاق -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- قال: أنا أخذت الطريقة من أبي القاسم النصراباذي، وقال أبو القاسم: أنا أخذتها من الشبلي وهو من السري السقطي وهو من معروف الكرخي وهو من داود الطائي، وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة النعمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكلٌّ منهم أثنى عليه وأقرّ بفضله]. اهـ من (الدرُّ المختار)[4].

وقول الإمام الشافعي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى-: [هؤلاء -أي الصوفية-

---

(١) سورة الجمعة، آية ٢.
(٢) سورة التوبة، آية ١٠٣.
(٣) تقدم توثيقه في ص٤٢.
(٤) الدرّ المختار، للفقيه علاء الدين الحصكفي مع حاشية رد المحتار لابن عابدين عليه، ١/ ٦٠.

عندهم رأس الأمر كله، وهو تقوى الله ومحبته]. وقوله: [صحبت الصوفية فاستفدت منهم ثلاث كلمات: قولهم: الوقت سيف إذا لم تقطعه قطعك. وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وقولهم: العدم عصمة][1]. وقال أيضاً: [حبب إليّ من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف][2].

وقول الإمام أحمد -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-: [إنهم -أي الصوفية- زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة]. وأصل هذا الكلام ما نقله الأستاذ يوسف خطَّار حيث قال: [كان الإمام أحمد -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى- قبل مصاحبته للصوفية يقول لولده عبد الله -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-: [يا ولدي عليك بالحديث، وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية، فإنهم ربما كان أحدهم جاهلاً بأحكام دينه]. فلما صحب أبا حمزة البغدادي الصوفي وعرف أحوال القوم أصبح يقول لولده: [يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة].

وكان الإمام أحمد بن حنبل مع جلالة قدره إذا توقف في مسألة يقول لأبي حمزة البغدادي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما تقول في هذه المسألة يا صوفي[3].

ونقل العلامة محمد السفاريني الحنبلي -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى- عن إبراهيم بن عبدالله العلائي -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى- أن الإمام أحمد -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى- قال عن الصوفية: [لا أعلم أقواما أفضل منهم، قيل: إنهم يستمعون

---

(١) تأييد الحقيقة العلية للإمام جلال الدين السيوطي، ص١٥.

(٢) كشف الخفاء، للعجلوني ١ / ٣٤١.

(٣) انظر: تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ١/ ٣٩٠. تاريخ دمشق، لابن عساكر، ٥١/ ٢٥٥.

ويتواجدون، قال: دعوهم يفرحون مع الله ساعة[1]] اهـ[2].

وقول الإمام الغزالي -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-: [لقد علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق][3].

وقول سلطان العلماء العز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللَّهُ: [قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنياً وأخرى، وقعد غيرهم على الرسوم].

وقول الإمام الشاطبي -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-: [إن كثيراً من الجهال يعتقدون فيهم -أي: في الصوفية- أنهم متساهلون في الاتباع، والتزام ما لم يأتِ في الشرع التزامه مما يقولون به ويعملون عليه، وحاشاهم من ذلك أن يعتقدوه أو يقولوا به، فأول شيء بنوا عليه طريقتهم اتباع السنة واجتناب ما خالفها، حتى زعم مذكرهم وحافظ مأخذهم وعمود نحلتهم أبو القاسم القشيري: أنهم اختصوا باسم التصوف انفراداً به عن أهل البدع، فذكر أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يُسمَّ أفاضلهم في عصرهم باسمٍ علم سوى الصحبة؛ إذ لا فضيلة فوقها، ثم سمي من يليهم التابعين، ورأوا هذا الاسم أشرف الأسماء، ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواصِّ الناس ممن لهم شدة عناية في الدين: الزُّهاد والعُبَّاد، قال: ثم ظهرت البدع وادَّعى كل فريق أن فيهم زهاداً وعُبَّاداً، فانفرد خواصُّ أهل السنة

---

(١) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ١/ ١٢٠.

(٢) الموسوعة اليوسفية، للأستاذ الدكتور يوسف خطَّار، ص٥٥.

(٣) المنقذ من الضلال، لأبي حامد الغزالي، ص٤٩.

المراعون أنفسهم مع الله والحافظون قلوبهم عن الغفلة باسمِ التَّصوف] اهـ.[1] فتأمَّل تَغْنم. والله أعلم.

وقول الإمام القشيري -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى- في رسالته (الرسالة القشيرية) متحدثاً عن الصوفية: [جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره..] إلى آخر ما قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

وكلام أئمة الدين في الصوفية والتصوف شيء كثير لا يحويه كتاب، ولكن نكتفي بالقدر اليسير والنزر القليل، الذي يدل على الكثير الكثير.

فبعدما رأيت ثناء هؤلاء الأماجد على التصوف وأهله فقد يخطر ببالك أنهم لم يكونوا من رُوَّاده، وهذا خطأ في الفهم فإنما هم من سالكيه ومؤيديه إلا أنهم ليسوا من أهل الاختصاص فيه، فقد اختصوا بعلومهم التي برزوا فيها، فالإمام أحمد مثلاً اختص بالحديث وعلومه فهو محدِّث وفقيه مجتهد، وليس خليّاً من شتى أنواع العلوم فهو يعلمها لغة وأصولاً سواء أصول الدين أو أصول الفقه وتصوفاً لكنه لم يشتهر إلا بما ذكرنا، فمن قعد للإقراء والتأليف والتصنيف في فنٍّ اشتهر به، ولا يكون ذلك دليلاً على كونه خالياً عن غيره من العلوم فافهم تغنم.



---

(١) الاعتصام، لأبي إسحاق الشاطبي، ص٨٩-٩٠.

(٢) الرسالة القشيرية، للإمام أبي القاسم القشيري، ص٢٤.

فشاهد الحال ظهر في الآيات بالإشارة إلى التصوف، فالإشارة إلى التصوف بمسمى يفهم منه، ففي الآية الأولى قوله: ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾، والتزكية هي التي عُنِي بها أهل التصوف، فهو التصوف الذي كان يغرسه النبي في أصحابه وهكذا من بعدهم، حتى أتى من تسمى بهذه التسمية وقعد وصنَّف في هذا الفن. وفي الآية الثانية الإشارة في قوله: ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي تصفيهم وتطهرهم، والتصفية والتطهير للباطن وهو محل ركن الدين الثالث، وحاملوه وغارسوه هم أهل التصوف.

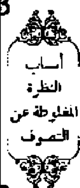
وما جاء في الحديث في شاهد الحال قوله ﷺ: «قوامة على أمر الله» أي: قائمة بأمر الدين الذي ينضوي تحته أركانه الثلاثة، وهو من دلائل النبوة حيث أخبر ﷺ بأنه سيكون من يعاديهم وينفر الناس عنهم كما هو الحال مع أهل التصوف الذي سار عليه أهل القرون الأُوَل وناقلوه إلى يومنا هذا. وما هذه الحملات المسعورة على أهل التصوف والتزكية والسلوك إلا لما يعلمه الأعداء من صلابتهم ورسوخهم على دين الله ﷻ وحفظهم للشريعة الغراء وللأمة من الانحلال والتفسخ والغزو بجميع أشكاله.

وإنما ذكرت ذلك واستندت لأقوال الأئمة في ذلك؛ لكي يعرف المسلم مقدار الصوفية ومنزلتهم، بل ومنزلة هذا العلم السلوكي الذي يقال له التصوف، والذي قد أوضحنا بأنه ركن الدين الثالث عند علماء السلف والخلف.

وقد عرفنا مما قدَّمنا كيد الأعداء لدين الإسلام للنيل ممن قعَّدوا الركن

الثالث من أركانه، وقد علمنا من هم، ولقد أضحى هؤلاء بحملاتهم يكيدون للتصوف وأتباعه حتى في تشويه التسمية واشتقاق اسم التصوف؛ لكي ينفّروا عنه المسلمين؛ خاصة الناشئة من أبنائه الذين قلَّ معلومهم وثقافتهم ومجالستهم واتصالهم بأهل الله والسلوك والإرادة، بسبب انحرافات المجتمعات بأشياء كثيرة ورواسب عليلة، وقد أتى هؤلاء أهل التغيير والتنفير لمن أراد اتصالاً وثيقاً بأهل الله، فقلبوا الحقائق، وزَوَّرُوا التاريخ والوقائع، وألصقوا التهم.

يقول الأستاذ رشيد ناجي الحسن: [لا يزال -وإلى هذه اللحظة- كثير من الأجيال المعاصرة يحملون عن التصوف ورجاله فكرة مشوهة يسودها الضباب المعتم في كل جوانبها، ومردُّ ذلك في نظري هو انطلاق هؤلاء في فهم التصوف من مفاهيم هي في الأصل مغلوطة تكونت لديهم نتيجة ظروف غير طبيعية عاشوها ، ظروف رسخت في أذهانهم أفكاراً هي إلى الباطل أقرب منها إلى الحق، هذا أولا..



أما السبب الثاني من الأسباب التي ولَّدت تلك النظرة المغلوطة فإنما هي بنظر كثير من العلماء: الأساليب المنحرفة التي مارسها بعض دعاة التسَلُّف في كثير من بلدان العالم ، الدعاة الذين نادوا بين الناس بأنهم هم ورثة الكتاب والسنة ، والمحافظون عليهما ، كما زعموا أنهم هم العلماء حقاً، والطالبون لسلوك طريق الحق صدقاً، وسَمَّوا أنفسهم باسم (السلفية) ليستغلوا بهذه التسمية جهل كثير من أهل هذا العصر الذين اتبعوهم نتيجة عدم فهمهم حقيقة التصوف والصوفية، واتفقوا كلهم على شيء واحد هو محاربة البدع والمحدثات، والتصوف برأيهم هو أقبح بدعة، وأظلم محدثة ظهرت في هذا الدين، لذا حملوا على

عاتقهم عبء الدفاع عن الإسلام ضد.. ضد من؟ ضد الاستعمار؟ ضد اليهود المعتدين؟ ضد المستشرقين المزوّرين؟ كلا هؤلاء مسالمون، وإنما الصوفية هم رؤوس الفتنة، وأحابيل الشر، التصوف وكما قال أحد دعاتهم هو الوباء القاتل أو القتّال والداء العضال، هو الزندقة والهرطقة والإلحاد والإفساد والحلول والاتحاد، والتصوف في فهم داعٍ آخر من دعاتهم هو عبادة أصنام -يقصد قبور الصالحين-، ومن هذا ابن عربي عندهم؟ إنه -والعياذ بالله- الطاغوت الأكبر -بدل الشيخ الأكبر-.

ومن هذا الغزالي؟ إنه كاهن الصوفية ونافخ جرثومتها، ومن الدكتور البوطي عندهم؟ إنه -حاشاه- المبتدع المفتري على السلفية.. ومن تلك الرابعة العدوية؟ إنها -حاشاها- الخبيثة الكاذبة.. إلى آخر تلك الكلمات الجارحة، والعبارات المؤذية التي أمسكنا عن كتابتها ترفعاً.

والأكثر من ذلك أنهم ادَّعوا أن أصول التصوف كلها ترجع إلى البوذية والنصرانية واليونانية.. فغدا التصوف نتيجة ذلك مثار الاستغراب والاستعجاب من قِبَل كثير من المذبذبين، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝﴾[1].

لقد استغل هؤلاء بُعْدَ المسلمين عن عهد النبوة والسلف الصالح فشرعوا يختطون لمذهبهم حدوداً جديدة بزيٍّ ملابس قديمة، فتكلم غير الفقيه منهم فيما يجهل، وقال في الأمور العامة منهم من لا يحسن أموره الخاصة.

ولكنَّا لن نُفاجَئ بهؤلاء وأمثالهم أبداً، فلقد أخبرنا النبي ﷺ بأن زمن هؤلاء سيأتي يوماً حيث قال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه

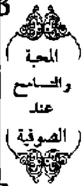
---

(١) سورة الكهف، آية ٥.

من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» متفق عليه.] اهـ[1].

إذاً فالتصوف هو ما عرَّفه به أهله وخاصته، لا أولئك الذين أخذوا ما أخذوه عن المستشرقين الذين كادوا للإسلام في حصونه المنيعة وهم أهل التصوف، وأتى هؤلاء يكررون ما قاله أولئك ونسبوا أنفسهم للسلف؛ والسلف منهم براء. فإذا بحثت عن أسِّ الإسلام الحقيقي وهو المحبة، فلن تجده إلا عند أهل الله من الصوفية، ولن تجده عند هؤلاء أهل الغلظة والنفور والتكفير والتفسيق والتبديع والقتل والتقتيل.

ففي العهود المحمدية للإمام الشعراني قال:[أُخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ: أن نكون رحمة بين العباد، وأن نرفق بخلق الله، ونحلم على من خالفنا وعصانا وآذانا][2]. وفي طبقات الشاذلية الكبرى: [أنهم يعاملون أعداءهم بما يعاملون أحبابهم من مكارم الأخلاق][3].



وكثيراً ما نجد في أقوالهم ومصنفاتهم الإشارة إلى أمرين أساسيين:

الأمر الأول: الدعوة إلى المحبة والتسامح والرحمة والشفقة على الناس جميعاً.

والأمر الثاني: التحذير من تكفير أحد من المسلمين.

ويقول الهروي الحنبلي ت(٤٨١هـ) في منازل السائرين: [التصوف

---

(١) هذا هو التصوف، لرشيد تاجي الحسن، دار اليمامة- حمص، ط١ ١٩٩٦م، ص١١-١٢.

(٢) العهود المحمدية، للإمام عبد الوهاب الشعراني، ص٣٠٧.

(٣) طبقات الشاذلية الكبرى، لأبي علي الحسن الفاسي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط٢ ٢٠٠٥م، ص٥٨.

هو الخلق، والمحبة سمة الطائفة وعنوان الطريقة][1].

ويقول سيدي عبد القادر الجيلاني -قدس الله سره- في بيان خصال الصوفي: [أن يجتنب الدعاء أو اللعن على أحد من الخلق وإن ظلمه؛ لأنها من أخلاق الأبرار والصديقين، وأن يتصف بالمحبة والشفقة والمودة للخلق أجمعين][2].

ومن وصايا ابن عربي: [وعليك برحمة الخلق أجمع، ومراعاتهم كائناً من كان؛ فإنهم عبيد الله وخلقه وإن عصوا، فإن فعلت ذلك أُجِرت][3].

يقول الأستاذ أسعد الخطيب: [إن الصوفية اعتنوا عنايةً فائقةً بوحدة الصف، والاتحاد الداخلي، وتماسك الجسم الإسلامي، وذلك حرصاً منهم على انتظام شمل المسلمين، في عدم انفراط عقدِ حياتهم، وصدع جمعهم.

محذرين في الوقت ذاته من الفرقة والبغضة والتناحر، وعاملين أقصى جهدهم على قطع دابر الفتنة والشرّ وفساد ذات البين، متمثّلين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾، والآيات في هذا المعنى كثيرة. كما قال ﷺ: «من خرج عن الطاعة، وفارق الجماعة، ومات فميتته ميتة جاهلية»][4] اهـ رواه مسلم.

وقد عرَّف أهل التصوف التصوفَ بتعريفات كثيرة تدور على

(1) منازل السائرين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1 1408هـ - 1988م، ص59-89.

(2) الغنية لطالبي طريق الحق، الشيخ عبد القادر الجيلاني، دار الجيل-بيروت، ط 1 1420هـ-1999م، ص314-ص315.

(3) الوصايا، لمحي الدين ابن عربي، دار الإيمان-بيروت، ط2 1408هـ-1988م، ص72-73.

(4) البطولة والفداء عند الصوفية، للأستاذ أسعد الخطيب، ص29.

معنى واحد. يقول الإمام السهروردي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [أقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول][1]، ونكتفي بهذه التعريفات التي سنذكرها والباقية تدل عليها؛ إذ هي عبارات شتى لمعنى واحد.

يقول الإمام الجنيد -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-: [التصوف أن يميتك الحق عنك ويحييك به][2]. ويقول أبو محمد الجريري عن التصوف: [هو الدخول في كل خُلُق سني، والخروج من كل خُلُق دنيء][3].

ويقول أبوبكر الكتاني: [التصوف خُلُق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف][4]. ويقول أبو تراب النخشبي: [الصوفي لا يكدّره شيء، ويصفو به كل شيء][5].

وسئل الإمام الشبلي -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-: لم سموا بهذه التسمية؟ فقال: [لبقية بقيت عليهم من نفوسهم، ولولا ذلك لما تعلقت بهم تسمية][6].

وقال الشيخ أبو القاسم النصر آبادي -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-: [أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، ورؤية أعذار الخلائق، والمداومة على الأوراد، وترك الرخص والتأويلات][7].

يقول الإمام الرفاعي -قدَّس الله سِرَّه-: [الصوفي من صفَّى سره من كدورات الأكوان، وما رأى لنفسه على غيره مزية]. ويقول أيضاً:

---

(١) عوارف المعارف، لشهاب الدين السهروردي، مكتبة الإيمان - مصر، ط١ ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ص١٣٤.
(٢) الرسالة القشيرية، للإمام أبي القاسم القشيري، ص٤٦٥.
(٣) المرجع السابق، ص٤٦٥.
(٤) المرجع السابق، ص٤٦٦.
(٥) المرجع السابق، ص٤٦٧.
(٦) المرجع السابق، ص٤٦٨.
(٧) المرجع السابق، ص١٢٥.

[الصوفي لا يصرف الأوقات في تدبير نفسه؛ لعلمه أن المُدَبِّر هو الحق عز وجل، ولا يلجأ في أموره، ولا يعول على غير الله تعالى].

هذا هو تعريف التصوف عند من تعلقت قلوبهم بالله، وتوجهوا في جميع أمورهم إلى الله، ولا يرون فضلاً لأحد إلا لله، انصبغت ظواهرهم وبواطنهم بنور من الله، فأنيرت قلوبهم وطهرت سرائرهم بالله، وتحقق فيهم الحديث القدسي: «كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها» رواه البخاري. فيا لله قومٌ غاية آمالهم ربهم ومعبودهم، لا يلتفت سرهم ولا باطنهم إلى شيء سوى الله تعالى، فصفت القلوب وتنورت الأبصار، وصَفُّوا من ارتبط بهم عن وثنية المادة بأكملها، فَحُقَّ لهم أن يتسموا بالصوفية.

ورجالٌ هذا حالهم لا بدَّ وأن يُحسدوا كما قال ذلك المولى في كتابه: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾[1].

فهكذا هو السير إلى الله تعالى على طريق القوم الذين شروا أنفسهم من مولاهم، وطريقهم كما ذكرنا: القيام بالركن الثالث من أركان الدين وهو الإحسان.

وقد قعّدوا له خمس قواعد عليها بُني التصوف، وهي:

١ - صفاء النفس ومحاسبتها:

وتصفية النفس هي تخليتها عن جميع الأوصاف المذمومة شرعاً، وهي: جميع الأمراض التي تعتري القلوب من المهلكات الموبقات، كالحقد والحسد والبغض وغيرها من الآفات، ومن شوائب النفوس

---

(١) سورة النساء، آية ٥٤.

المرذِّلات، كحبِّ الدنيا والرياسة والجاه وغيرها من الأمور التي تعتور الأنفس المريضة، ومحاسبة النفس على كل التفاتة إلى زخرف الحياة الدنيا الفانية، وعلى كلِّ توانٍ وتقصير، وحمل النفس على أقوم الطرق والبلوغ بها إلى ما شق، حتى يتحقق فيها قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1].

[يقول صاحب (مراقي الفلاح) العلامة الشرنبلالي: [لا تنفع الطهارة الظاهرة إلا مع الطهارة الباطنة، بالإخلاص لله والنزاهة عن الغل والغش والحقد والحسد، وتطهير القلب عما سوى الله من الكونين، فيعبده لذاته لا لعلة؛ مفتقراً إليه، وهو يتفضل بالمنِّ بقضاء حوائجه المضطر اليها؛ عطفاً عليه، فيكون عبداً فرداً للمالك الأحد الفرد، الذي لا يسترقُّك شيء من الأشياء سواه، ولا يَسْتَمِلك هواك عن خدمتك إياه][2].

نعم كما لا يحسن بالعبد أن يظهر أمام الناس بثياب ملطخة بالأقذار والأوساخ، كذلك لا يليق به أن يتحرك وقلبه مُسْوَدٌّ بالظلمات مريض بالعلل والآفات، ونفسه مشوبة بالكدورات ومتعلقة بالشهوات.

يقول صاحب (الهدية العلائية): [وقد تظاهرت نصوص الشرع والإجماع على تحريم الحسد واحتقار المسلمين وإرادة المكروه بهم والكبر والعجب والرياء والنفاق وجملة الخبائث من أعمال القلوب، بل السمع والبصر والفؤاد فكل ذلك كان عنه مسؤولا مما يدخل تحت

---

(١) سورة النازعات، آية ٤٠-٤١.

(٢) مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح، حسن بن عمار الشرنبلالي، المكتبة العصرية، ط١ ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م، ص٤٩.

الاختيار][1].

وقال صاحب جوهرة التوحيد الشيخ إبراهيم اللقاني:

وأمر بعرف واجتنب نميمة وغيبة وخصلة ذميمة
كالعُجْب والكبر وداء الحسد وكالمراء والجدل فاعتمد

يقول شارحها عند قوله: [وخصلة ذميمة]: أي واجتنب كل خصلة ذميمة شرعاً، وإنما خصَّ المصنف ما ذكره بعدُ اهتماماً بعيوب النفس؛ لأن بقاءها مع إصلاح الظاهر كلبس ثياب حسنة على جسم ملطخ بالقاذورات. وقوله [كالعُجْب]: هو رؤية العبادة واستعظامها كما يَعْجَب العالم بعلمه والعابد بعبادته، فهذا كلُّه حرام. ومثل العُجْب: الرياء والظلم والبغي والكِبْر وداء الحسد والجدل والمراء[2].

والكِبْر من أمراض القلوب، وهو وحده يكفي لدخول النار، بدليل قول النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» رواه مسلم.

يقول ابن ذكوان في أهمية التصوف وفائدته:

علم به تصفية البواطن من كدورات النفس في المواطن

قال العلامة المنجوري في شرح هذا البيت: [التصوف علمٌ يُعْرَف به كيفية تصفية الباطن من كدورات النفس أي: عيوبها وصفاتها المذمومة، كالغِلِّ والحقد والحسد والغش، وحُبِّ الثناء والكبر والرياء، والغضب والطمع والبخل، وتعظيم الأغنياء، والاستهانة بالفقراء؛ لأن علم التصوف يَطَّلع على العيب والعلاج وكيفيته، فبعلم التصوف يُتوصل

---

(١) الهدية العلائية لعلاء الدين عابدين، ص٣١٥.

(٢) تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد للإمام إبراهيم الباجوري، ص١٢٠-١٢٢.

إلى قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يُتوصل إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله تعالى].

وللسادة الصوفية الحظ الأوفر من الوراثة النبوية في تحلية النفس بالصفات الكاملة، كالتوبة والتقوى والاستقامة والصدق والإخلاص والورع والتوكل والرضا والأدب والتسليم والمحبة والذكر والمراقبة. وقد قيل في حقهم: قد رفضوا الآثام والعيوب، وطهروا الأبدان والقلوب، وبلغوا حقيقة الإيمان، وانتهجوا مناهج الإحسان] اهـ[1].

٢- إخلاص النية في جميع الأعمال لله تعالى الواحد القهار:

والمراد من ذلك أن المتصوف لا يريد بأعماله إلا وجه الله تعالى، محققاً قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[2]، فجميع الأعمال التي يقوم بها لا التفات بها لأحدٍ صَغُر أو كَبُر، إلا لله الواحد القهار الذي يرجو ضره ونفعه وعطاه ومنعه؛ لذا جهد أهل التصوف في هذا المبدأ، وغاصوا في معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات» متفق عليه، وعلموا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ۝٢٨﴾[3]، فلا عمل لهم إلا لله، بل لا ينظرون إلى العمل الناتج منهم، لأنهم يعلمون أن المحرك لهم هو الله، فكيف يشاهدون غيره أو يشهدون الغير في عملهم؛ لذا استوى عندهم المدح

---

(١) الموسوعة اليوسفية، ص٢٤-٢٦.

(٢) سورة البينة، آية ٥.

(٣) سورة الكهف، آية ٢٨.

والذم، حتى قالت رابعة العدوية -رحمها الله تعالى-:

فيا ليت الذي بيني وبينك عامر   وبيني وبين العالمين خراب

لأنهم لا يشهدون إلا هو، ولا يريدون إلا وجهه.

يقول الشيخ علي بن بندار -رحمه الله تعالى- : [التصوف هو إسقاط الخَلْق ظاهراً وباطناً](1).

٣- قيام النفس بالفكر والافتقار والذل والانكسار:

ومعنى ذلك: التمسك بالزهد في الدنيا، فلا يراها غايته، ولا يجدها مطلوبه وبغيته، وليُفْهَم ذلك؛ فإنه ليس المراد منه ترك الدنيا كما يظن البعض ممن لديهم كيد وخصومة على الصوفية، بل معناه الزهد فيها؛ بأنها إن كانت معهم لا يُعَوِّلون عليها، بل تكون في أيديهم لا قلوبهم، فلا يبخلون بها خوفاً من الفقر، ولا يطمعون فيها حبّاً في الدنيا ومُتَعِها الزائلة، فقد عُرِضت على النبي ﷺ فأبى عندما أثّر الجوع فيه، بأن تجعل له الجبال ذهباً، فقال: «لا يارب، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً فإذا شبعت حمدتك وشكرتك، وإذا جعت تضرعت إليك ودعوتك» رواه الترمذي والبيهقي.

وبمعنى أوضح فهم لا يحزنون على ذهابها ولا يفرحون بها، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾(2)، مع افتقارهم وذلِّهم وانكسارهم لمولاهم في جميع حال حياتهم الدنيا، فقلوبهم متعلقة به ولا تتسع لغيره؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعطَ

---

(١) معيد النعم ومبيد النقم، للإمام تاج الدين السبكي، ص٩٤.

(٢) سورة الحشر، آية ٣٢.

سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبدٍ آخذٍ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع» رواه البخاري. فمن تعلق بشيء جعله غايته ومناه فكان عبداً له، ولما كانت عبوديتهم محضة لله تعالى لم يكن لهم تعلق بغيره لا بدنيا ولا غيرها. هذا مفهوم الكلام عندهم وحقيقته، لا ما يُرَوِّجُه الذين تعلقت قلوبهم بالدنيا فكانت هَمَّهم وفرحهم وغايتهم ومبتغاهم.

٤- التربية على الرحمة والمحبة وغرسها في القلب حتى تتوطن فيه:

والرحمة والمحبة هنا بمفهومها العامِّ الشامل لمن يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، وهي بمعنى إرادة الخير بكل أشكاله وصوره لِعامَّة المسلمين وخاصتهم ودفع الشر عنهم، فلا يحب أن يمسَّ مسلماً سوءٌ ولا يخطئه خير، وكم من الآيات والأحاديث الدالَّة على ذلك.

فالصوفي قلبه مفعم بالمحبة والرحمة لإخوانه المسلمين، بل ولغيرهم من البشر مَحَبَةً للانسانية، وذلك بإرادة الهداية لهم، فهو رسول سلام ورحمة ومحبة، قد استقى ذلك من قوله تعالى لسيد أحبابه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[1]، فهو لا يريد دماراً ولا قتلًا وسفكاً للدماء للبشرية بأنواعها فضلاً عن إخوانه المسلمين، بل يريد هداية وتوفيقاً ورعاية للدين الحق.

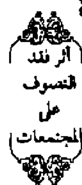
٥- التحلي بمكارم الأخلاق:

وقد استقوا ذلك من الحبيب الأعظم ﷺ، فكان لهم الأسوة الحسنة، فتأسوا بأخلاقه وساروا على ما ذكَّرهم به بقوله: «إنما بُعِثتُ لأتمم

(١) سورة الأنبياء، آية ١٠٧.

مكارم الأخلاق» رواه أحمد والحاكم والبيهقي وغيرهم. ومن أعظم الأخلاق التي تحلَّوا بها: اللين، والتواضع، والصفح، والعفو، والكرم، والجود، والبذل، والإنفاق، وسعة العلم، والصبر، وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

ويجمع ذلك كله ما قاله الإمام محمد بهاء الدين الروّاس -قدس الله سره-: [الصوفي التقي الذي لا يريد فساداً في الأرض ولا علواً من رؤية أبيه وجده وطوره ومقامه، الذي يصير مع الحق أين كان، ولا ينحرف عنه].



ولما عرف هؤلاء أن النفس لا تنضبط ولا تصلح إلا بهذه الأمور التي ذكرناها، سعوا إليها وربّوا عليها مريديهم، ونشروا ذلك في الناس، وبيَّنوا ووضَّحوا، خاصة عندما استشرى الركون للدنيا وما فيها واستفحل حبُّها في القلوب، وأصبحت غاية الناس وهمَّهم وكأنهم خُلقوا للدنيا، حتى وصل الأمر إلى انحطاط دولة الإسلام وتقويض أركانها، وأصبحت دويلات تتنافس عليها الأطماع والرغبات من أجل الدنيا ورياستها، وتفشّى الفساد والإفساد في الأمة بأسرها، حتى أصبح الأعداء لا يبالون بأمة الإسلام. فاحتل الأعداء دولة الإسلام، وزحف الفرنجة والمغول، بل وصل الأمر أن ساعد أهل الإسلام أعداء الإسلام من الصليبيين وغيرهم على بعضهم البعض -كما نشاهده في هذه الأيام أيضاً-؛ لفقد التربية الروحية ونشر الصفاء الذي قام به السادة الصوفية؛ حتى يطهروا المجتمعات من رذائل الأخلاق والتهالك على حب هذه الدنيا ونسيان الآخرة، والسعي الحثيث للفانية والابتعاد الشامل عن موروث الأخلاق المحمدية، والتي يسعى إلى تكريسها -أي: الأخلاق

المحمدية- السادة الصوفية في أبناء الأمة، حتى يستقيم نهجها، وتنهض برسالتها، وتتحقق فيها الخيرية التي خصها بها ربها ﷻ بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[1].

إن الخلل في التربية يؤدي بالأمة للهاوية، فكم ربى النبي ﷺ أصحابه في العهدين، وغرس فيهم كماً كبيراً من الأخلاق التي عناها عليه الصلاة والسلام بقوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، حتى نهض بأصحابه وبنى دولته بالشرائع والأحكام والتربية والأخلاق المفعمة بالإيمان لتكمل أركان الدين، وتنضوي الأمة تحت مجموع أركانه، ويتحقق فيهم السير إلى الله تعالى.

وهكذا أخذ بهذا المبدأ من أتى بعده من أصحابه ومن بعدهم كما بيّنا، حتى دبّ فيهم ما ذكره عليه الصلاة والسلام بقوله: «دبّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكنها تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أفلا أنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم» رواه الترمذي والبيهقي في السنن، فإن هذين العنصرين إذا ما وُجدا في أمة فقد تُودِّع منها، وهما العمل من أجل الدنيا الفانية في جميع مناحي الحياة مع الحرص عليها والتشبث بها والركون إليها والحرص على البقاء فيها، فإنه لا شكَّ أن مثل هذه الأمور تؤدي بانحراف الأمة عن مُثُل الأخلاق التي ربَّى الرعيل الأول ورجالات التصوف أتباعهم عليها وبيَّنوها للأمة، وسأُجمِل بعضاً من هذه الأخلاق التي يحرص عليها رجالات

---

(١) سورة آل عمران، آية ١١٠.

التصوف ويُذْكُونها في مريديهم ومجتمعاتهم قولاً وفعلاً، تربيةً وسلوكاً.

وإذا ما عرفنا جملة من تلك الأخلاق، وخلوَّ أولئك الذين يعادون التصوف ورجاله عن مثل هذه الأخلاق؛ لأنهم لم يتربوا عليها، ويشعرون بالنقص عندما يسمعون أو يطالعون أو يعايشون أحداً من رجالات هذه الطائفة، فيهرعون إلى الانتقاص منهم بأساليب متنوعة، بالطعن والثلب بما ألصقوه من تُهَمٍ مشبوهة بأهل الله تعالى، أو بما يذكرونه عنهم من كلمات لم يعرفوا معناها حقاً، فحرَّفوا المعنى كما يريدون، كل ذلك لإرضاء ما هم عليه من نقص وما دعته أنفسهم من دَعَةٍ وإخلادٍ للحياة الفانية، والتي يسعون إليها بكل ما أُوتوا من قوة، وتقليداً لأعداء الإسلام من المستشرقين الذين جرَّدوا كلامهم للطعن بمن عرفوا فيهم النهوض بالأمة إلى عليائها، عندما سبروا تاريخ الأمة وكيف يكون لها النهوض -بعد سقوطها في الانحطاط والنصر بعد وقوعها في الهزيمة- على يد أهل الله عندما يعودون بالأمة لسيرها الصحيح بالتربية وغرس الأخلاق ومعرفة معنى الحياة التي أرادها الله تعالى لها وحثَّهم عليها نبيه ﷺ والمهديُّون من أمته في كل عصر وأوان.

وسيأتي -إن شاء الله تعالى- كيف نهض هؤلاء الأفذاذ بالأمة بعد تفرقها وهزيمتها وتسلط أعدائها عليها، ووقوفهم في ميادين الجهاد بعد حمل الأمة على الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس، وذلك بما سنذكره من مجمل الأخلاق التي تحلَّوا بها وربُّوا أتباعهم عليها كما أسلفت.

وأول هذه الأخلاق التواضع: وهو خُلق لا يرى صاحبه لنفسه منزلة مهما علا شأنه وارتفع أمره، لأنه يرى نفسه في موضع الخدمة عند

الملك، فكيف يكون للخادم شأن يراه لنفسه عند من يخدمه، بل يلاحظ ذلك مهما قرَّبه ورفعه المخدوم، وهؤلاء يرون أنهم في مقام الخدمة لله ورسوله وللمؤمنين في جميع أطوار حياتهم، فخُلُقُهم التواضع الدائم المستمر، وكم كانت السيرة مليئة بخلق التواضع لنبي الأمة وهاديها ومرشدها عليه الصلاة والسلام الذي هو قدوتهم ومحبوبهم وقائدهم الذي أخذوا عنه مثل هذه الأخلاق الفاضلة التي تحلوا بها وسلكوها منهجاً في حياتهم، ولو لم يقل النبي عليه الصلاة والسلام إلا هذا الحديث لكفى، وهو قوله: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا، حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد»(1).

فنرى هذا الخلق العظيم يتحلى به هؤلاء الأفذاذ في جميع الصور التي حباهم الله إياها، فمن أقامه في مقام العلم لم يجره العلم إلى خلاف التواضع، فلم يترفع بعلمه على الآخرين كما هو شاهد الحال في غير أهل الله تعالى من تَرَفُّعِهم على عباد الله لصفة اكتسبوها، لذلك يقول الشيخ محمد الكتاني رحمه الله: [التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف](2).

وما أجمل هذا الكلام، فمن تحقق وتربى على مثل هذا الكلام لم يجره شيء أو صفة اتصفً بها إلى غير هذا الخُلُق؛ لأنه يشعر أنه في مقام الخدمة كما أسلفنا، فأنَّى له أن يتكبر ويتعاظم في نفسه كما هو حال فاقدي التربية القائمين بحظوظ أنفسهم في كل صفة اكتسبوها، أو حتى ادَّعوا أنهم يتحلَّون بها.

---

(1) رواه مسلم وغيره.

(2) الرسالة القشيرية، للإمام أبي القاسم القشيري، ص١٢٥.

فكم من أمثال هؤلاء من يتقمَّص العلم وهو خليٌّ منه، لأنه لم يعرف من العلم شيئاً ولم يأتِ أهله ولم يثنِ ركبتيه عندهم، بل تجده أخذ من هنا وهناك، كلماتٍ تَلَقَّفها وأفكار أُوعزت إليه لتشتيت الأمة وتفتيت المجتمعات، ونفخوا فيه بأنه من العلماء أو طلاب العلم، وأعطوه من المال ما هو بغيته وطلبه في الحياة، مع ما تربى عليه من دنئ الأخلاق، وما اكتسبه في تربيته من مذموم الصفات التي تربى عليها، مع ابتعاده عن أهل العلم والتقوى ورجال الله الذين تتزكى بهم النفوس، ووقوعه في قاذورات النفس التي زَيَّنت له بأنه في مصافِّ العلماء مع تحسين شياطين الجن والإنس ونفسه وهواه ذلك فيصدِّق ما زُيِّن له، فيصطدم بها عند أهل العلم من أهل الله تعالى ومريديهم من أخلاقٍ فاضلة وصفاتٍ عالية، سواء أَسَمِع عنهم أو عايشهم، فتعرَّت حقيقته أمامهم، وانكشف زيفه، سواء لنفسه أو لأهل مجتمعه الذين يعيش معهم، وعرف حجمه؛ لأن أهل الله مرآة له ولغيره، تنكشف بهم زيف الأنفس وعوارها، ويُعْرَف بهم الحق، ويتميز بهم أهل الباطل ويعرفون.

فما كان من أمثال هؤلاء إلا المحاربة لأهل الله تعالى بإلصاق التهم والتجرئ عليهم من غير حاجزٍ من خوفٍ من الله تعالى أو استحياءٍ مما يروجونه من كذب وأباطيل، لأنهم تربوا عليها.

يقول الله تعالى في الحديث القدسي: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه» رواه

البخاري. ويقول مالك بن دينار: [كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً ويقع في الصالحين]. ويقول أحمد بن حرب رَحِمَهُ اللَّهُ: [ليس شيء أنفع لقلب العبد من مخالطة الصالحين والنظر إلى أفعالهم، وليس شيء أضرَّ على القلب من مخالطة الفاسقين والنظر إلى أفعالهم]. ويقول سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: [لأن تلقى الله تعالى بسبعين ذنباً فيما بينك وبينه، أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد].

وهؤلاء المعادون وإن نجحوا فيما يرونه نجاحاً بالمقاييس الحياتية؛ لأن أبواق الوسائل التي تصل إلى المجتمع في أيديهم، بل وسُخِّرت لهم بتدبير عالمي للنيل من الإسلام وأهله، فهذه الوسائل المقروءة والمسموعة والمرئية بأيديهم، بل وأوصلوهم إلى سُدَّة الوسائل التعليمية والثقافية في مجتمعات المسلمين، فسيطروا على المدارس والجامعات والكتب والمجلات وحتى المساجد انتزعوها من أهلها أو بُنِيت لهم بأموال طائلة هنا وهناك، وكم من أموال الزكاة تُدْفَع إليهم فيصرفونها على منهجهم ذلك، كلُّ ذلك إطفاءً لنور الحقيقة التي لن يطفئها الله تعالى والذي تكفل بحفظها وبأهلها الذين من أخلاقهم التي تحلوا بها: المداراة، واحتمال الأذى، لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[1].

ومن أخلاقهم: التجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة.

ومن أخلاقهم: الإيثار، والمواساة، والبِشْر، وطلاقة الوجه، والإنفاق من غير إقتار وترك الادِّخار، وهو الذي لا يقدر عليه من صادم هؤلاء الأفذاذ، الذين يسعون لجمع الحطام، وحياتهم من أجل الدنيا.

---

(١) رواه البخاري في (الأدب) والترمذي وابن ماجه وغيرهم.

ومن أخلاقهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: التودد، والتآلف، والتراحم، وجمع الكلمة، وأولئك بمنأى عنها كما يشهد على ذلك الواقع الذي نعيشه، فهم أهل خصامٍ وشقاقٍ، وتفريقٍ وغلظةٍ، ملأت أرجاء المعمورة قتلاً وتفجيراً وتكفيراً وتفسيقاً وتبديعاً وقتلاً كما هو مشاهد عبر ما يُنْقَل إلينا ونشاهده، ولم تبلغ به أمة من الأمم كما بلغ به هؤلاء باسم الدين، يقول: الله أكبر ويقتل المسلم ويشق صدره ويُخْرِج قلبه ويأكل منه، بل وصل بهم الأمر إلى قطع الرؤوس وشيّها في النار، بل ونبش القبور وإخراج الموتى منها!. أهذه هي أخلاق المؤمنين أم أخلاق من نسمع عنهم أو نقرأه في الكتب من آكلي لحوم البشر؟.

ومن أخلاقهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: كثرة الخوف من الله تعالى المقرون بالرجاء مع غيرتهم لله تعالى إذا انتُهكت حرماته؛ نصرة للشريعة المطهرة، فكانوا لا يعملون عملاً ولا يصحبون أحداً إلا إذا علموا رضا الله تعالى فيه، فلا بغضَ ولا محبة من أجل الدنيا بل أعمالهم كلها متعلقة بالله تعالى.

هذا هو حالهم وأخلاقهم، والتي منها: قلة الضحك وعدم الفرح بشيء من الدنيا التي هي محبوبة أعدائهم، وغير ذلك من الأخلاق الفاضلة والصفات العالية التي تَحَلَّوا بها ورسموها طريقاً في حياتهم وحياة أتباعهم لأنها لبّ الدين وخلاصته، وكل الأمة محتاجة إليها.

وما أُوتيت الأمة وسقطت في الهاوية إلا بعد التجرد عنها، وما ذاقت وبال الهزيمة إلا لما بعدت عن التحلي بها وإن كثر عَدَدها وعُدَدها كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولَيَنزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة

منكم، وليَقذفنَّ في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حُبُّ الدنيا، وكراهية الموت» رواه أحمد في مسنده وأبو داود في سننه.

وقد وصل الحال بالمسلمين إلى هذه الحالة الغثائيَّة -إن صحَّ التعبير عنها بهذه الكلمة- لما انحلَّ التمسك الكامل بالركن الثالث من أركان الدين، وقد حصل التقهقر في جميع ميادين الحياة للأمة، وحصل التشرذم والدويلات والويلات والفِرَق والتفرق والتمزق والانهيار، وأصبحت دولة الإسلام دولاً تحارب بعضها بعضاً، فهانت على عدوها وخارت في ميادين الجهاد أمام هجمات الأعداء، بل ووصل الحال بهم لما تجردوا عن أخلاقهم وابتعدوا عن مسار التزكية والتربية وحياة الصفاء والاصطفاء إلى ما وصفناه.

والقارئ في تاريخ المسلمين يجد هذا الحال الذي وصل إليه المسلمون في ذلك الوقت، وأصبحوا دويلات تقاتل بعضها بعضاً وتستنصر بعدوِّها من الكفار على إخوانهم من المسلمين.

من أجل ذلك عكف علماء التربية والسلوك من أهل التصوف على السعي إلى مجاهدة النفوس التي باعت أنفسها للدنيا ومن أجلها، حتى يستطيعوا أن يجدوا من يقوم بالجهاد المفروض تجاه أعداء الإسلام ويكون النصر لهم كما قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[1]، أي: يكون جهادكم من أجل الله ولدينه، فيكون النصر حليفكم، ولن يكون العمل كذلك حتى تزكو النفوس وتتحرر عن الهوى وحُبِّ الدنيا والانغماس فيها.

---

(1) سورة محمد، آية ٧.

سبب تأليف إحياء علوم الدين

لذا سعى الإمام الغزالي -رَحِمَهُ اللهُ تعالى- لما رأى جنوح الأمة إلى ملاذِّ وشهوات الدنيا إلى وضع كتابه (إحياء علوم الدين) الذي يربي فيه نفس المؤمن على ما تنبني التربية عليه، حتى يكون الفرد صالحاً وبه يصلح المجتمع، وكم طعن أولئك في كتاب الإحياء، حيث ذكروا أن الإمام كان عاكفاً على تأليفه وقت غزو الفرنجة لبلاد المسلمين، ولم يذكر فيه الجهاد، وجعلوا ذلك مطعناً. وما عرف أمثال هؤلاء إلا الطعن والنقص لأهل الله، وما عرفوا أن الجهاد لا يقوم إلا على الأنفس الأبيّة، المتربية على مكارم الأخلاق والهمة العليّة، وبيع الأنفس لله تعالى؛ حتى تكون صاحبة نصر.

الجهاد وأنواعه

ويبين ذلك ما قاله الراغب الأصفهاني: [الجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو. والجهاد ثلاثة أضربٍ: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس. وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾(1)](2).

إذاً فالجهاد في الإسلام: هو بذل الجهد في مدافعة الشر واستجلاب الخير، والعدوُّ الذي نجاهده قد يكون ظاهراً وقد يكون خفياً، فالإنسان مجاهِدٌ في الحالتين.

وقد وصف الرسول ﷺ جهاد الإنسان للعدوِّ الظاهر بأنه: «الجهاد الأصغر»(3) لظهور العدوِّ، والاستعداد لمنازلته. أما مجاهدة النفس

(1) سورة الحج، آية ٧٨.

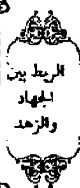
(2) مفردات غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط١ ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص١٠٦.

(3) وذلك فيما أخرجه البيهقي في الزهد والخطيب البغدادي في تاريخه والديلمي في مسند الفردوس من حديث جابر بن عبد الله قال: قدم على النبي ﷺ قومٌ غزاة

ومحاربة الهوى فقد سمّاه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: «الجهاد الأكبر»؛ لاختفاء العدوّ ووسوسته.

[يقول العارف بالله عبد الغني النابلسي (١٠٥٠-١١٤٣هـ): [واعلم يا أخي أن الجهاد على قسمين: جهاد أصغر، وجهاد أكبر. أما الجهاد الأصغر: فهو جهاد الإنسان أعداءه الكافرين، وقتالهم فرض عين إن هجموا على حصن من حصون المسلمين.

أما معرفة الجهاد الأكبر: فهو من أهمّ الأمور على المكلف، وذلك فرض عين عليه. فالمؤمن في جهاد دائم مع نفسه لتوقي مفاسدها، إلى أن يموت، بخلاف الجهاد مع الكفار؛ لأنّ بقاء الكافرين في الدنيا على كفرهم لا يضرُّ أهل الإسلام في دينهم].



وقد حرص الإسلام في عدد من الآيات والأحاديث والأخبار على الربط بين الجهاد وبين الصبر والزهد والبلاء. فأكّد على مجاهدة النفس وترويضها، من أجل استقامة المنهج السلوكي والأخلاقي، والتأسي برسول الله ﷺ والراشدين والصحابة والتابعين والأولياء الصادقين. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.(١)

ذكر سيدي عبد القادر الجيلاني في شرح هذه الآية: [أمرك بالصبر يا مؤمن أولاً، ثم بالمصابرة والمرابطة والمحافظة والملازمة، ثم حذّرك من تركه، فقال: واتقوا الله].

فقال: «قدمتم خير مقدم، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه».

(١) سورة آل عمران، آية ٢٠٠.

وفي موضع حديث أبي طالب المكي (ت ٣٨٦هـ) عن مقام الزهد عند الصوفية، وبعد استدلاله بالآية الكريمة: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾(١) قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في (قوت القلوب): [القتال: هو فراق الحياة الدنيا، لأنه المشي بالسيف إلى السيف، ولذلك قال المنافقون: هلا أبقيتنا إلى وقت آخر. وهذا هو حبُّ البقاء لمتعة النفس وإطاعة الهوى.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾(٢)، يعني رغبوا في البقاء الأدنى، وهي الدنيا، فينبغي أن يكون حبُّ بقاء الباقي هو الزهد في الحياة الفانية. ولذلك صار الجهاد أفضل الأعمال؛ لأنه حقيقة الزهد في الدنيا].اهـ(٣).

وفي وصية عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى قائد جنده ومن معه الحضُّ على التقوى وعلى جهاد النفس: [أما بعد: فإني آمرك ومن معك بتقوى الله، فإنها أفضل العدة على العدوّ، وأقوى المكيدة على الحرب، واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوّكم، أسأله تعالى ذلك لنا ولكم](٤).

وعلى كُلٍّ فالأخبار والآثار غنيَّة في هذا المعنى، وهي أكثر من أن تحصى.

---

(١) سورة النساء، آية ٧٧.

(٢) سورة البقرة، آية ٨٦.

(٣) قوت القلوب، لأبي طالب المكي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢ ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م. ج١/ ص٤١١-٤١٢ باختصار.

(٤) ذكره الإمام أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء بسنده من وصية عمر بن عبد العزيز، ج٥، ص٣٠٣.

وقد استطاعت الصوفية الجمع بين جهاد النفس وبين الجهاد القتالي؛ لأن هناك ترابطاً وثيقا بينهما. فالجهاد الأكبر؛ تهذيب النفس، وتوجيهٌ لها تجاه الخير. وهي بذلك تستعدُّ لملاقاة العدوّ ومنازلته.

أما النفوس التي انحرفت، وسارت مع الهوى، فإنها لا تستطيع أن تواجه العدو، ولا أن تصارع المعتدين] اهـ[1].

ومما نقلنا يظهر أن الإمام الغزالي هو بحق قائد الإصلاح في وقته للأمة؛ حيث إذا استقامت أنفسها وتزكّت قلوبها وتحلَّت بأخلاق الإسلام صلحت جميع نواحي الحياة عند الأمة.

يقول الأستاذ أسعد الخطيب: [ومع شخصية ذات عمق وسعة، ونظر ثاقبٍ، كشخصية الغزالي، رأت أنّ إصلاح الميدان الأخلاقي كفيل بإصلاح بقية نواحي المجتمع، من سياسية وعسكرية وغيرها. وعَدَّ ذلك فرض عين بالنسبة له، لا يسدُّ مسدّهُ سواه. ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم.

وقد أقام الحق تعالى الغزالي، حتى يكون في الناس من يحفظ به العقائد الصحيحة، ويدفع شبه الملحدين والمبطلين، وأجره أعظم من أجر المجاهد بكثير. فاستحق عند الجميع أن يكون حُجّة الإسلام.

ونحن هنا نشارك الدكتور محمد زنبير رحمه الله في عزوه الأسباب العميقة للانتصارات على الصليبيين: إلى الجهد الذي رصده هذا المفكر الإسلامي الكبير (أبو حامد الغزالي) من اقتناع بأنّ الإسلام أصبح في حاجة إلى من يعرّف به من جديد، حتى يحيا في القلوب، ويدرك أهله سرّ تعاليمه، وعنوان مؤلفه الأكبر ذو دلالة كبيرة (إحياء علوم الدين)،

(١) البطولة والفداء عند الصوفية، للأستاذ أسعد الخطيب، ص٤٣-٤٦ بتصرف يسير.

وقد تجسدت روح الاحتساب وإخلاص النيّة التي دعا إليها منذ بداية الحروب الصليبية في أبطالها، وعلى رأسهم نور الدين وصلاح الدين، اللذان تأثّرا بأفكاره غاية التأثّر.

وهذا التحليل لا يدعو للغرابة، فصيحة الإمام الغزالي لم تكن صيحةً في واد، ولا نفخةً في رماد، ذلك أنّ الفكرة الصالحة تعبق وتنتشر ولو بعد سنين، والبذرة الطيبة تخصب وتنبت ولو بعد حين. ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]] اهـ[2].

بل ونقول لأولئك الذين اتهموا الإمام الغزالي أنه لم يذكر الجهاد ضد الأعداء؛ نقول لهم: اقرؤوا حقيقةً للإمام في جميع كتبه، أما الإحياء فقد وضعه لغرض وقد بيّنا ذلك. ومدرسة الغزالي التي أرادها؛ أخذ بزمامها سيدي عبد القادر الجيلاني وغرس هذه المبادئ، وتخرج من تلك المدرسة نور الدين وصلاح الدين وغيرهم من القادة، الذين كسروا الصليبيين وحرَّروا القدس وبلدان المسلمين؛ لـمّا زكت نفوسهم. وهذا الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر الجهاد في كتابه (مكاشفة القلوب)، وأفرد فيه باباً خاصاً في فضل الجهاد، فليخسأ المبطلون، وليرفع رأساً أتباع أهل الحق وخاصته.

بل ويقول الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الإحياء) مشيراً ومشيداً بالجهاد والاستشهاد في سبيل الله تعالى؛ وهو ما نقله عنه صاحب كتاب (البطولة والفداء): [ويركز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في سِفْرِه العظيم (الإحياء) على الزهد، وينتهي في الجزء الأخير إلى القول:

---

(١) سورة الرعد، آية ١٧.

(٢) البطولة والفداء عند الصوفية، للأستاذ أسعد الخطيب، ص١٦٨-١٦٩ بتصرف يسير.

[فالحاصل أنّ الزهد عبارة عن الرغبة عن البقاء في الدنيا، لذلك لما كُتب عليهم القتال -أي: المنافقين- ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾[1]، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[2]، أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا، أمّا الزاهدون المحبون لله تعالى، فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص، وانتظروا إحدى الحسنيين، وكانوا إذا دُعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة، ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد، وهكذا كان حال الصادقين في الإيمان، الذين تركوا تمتّع عشرين سنة مثلاً أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد، واستبشروا ببيعهم الذي بايعوا به.

وأما المنافقون ففرُّوا من الزحف؛ خوفاً من الموت، فإيثارهم البقاء على الشهادة، استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير][3].

وفي موطن آخر يقول الغزالي: [أكمل اللذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله؛ لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا، مشتاقين إلى لقاء الله، راضين بالقتل في مرضاته. ونعيم الجنة الذي يدركه الشهيد أمرٌ انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين] اهـ[4].

وبعد ما ذكر الغزالي: أن رتبة الشهادة عظمت؛ لأن فيها من الفضائل ما لا يحصى، عدّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهم هذه الفضائل:

[القدوم على الله والقلب مستغرق بالله عزَّ وجل، فإنه لو لم يُقتل وبقي مدة ربّما عادت شهوات الدنيا إليه، ولقد عظُم الخوف من أمر الخاتمة،

---

(١) سورة النساء، آية ٧٧.

(٢) سورة النساء، آية ٧٧.

(٣) إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، دار المعرفة - بيروت، ٤/ ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٤) إحياء علوم الدين، كتاب ذكر الموت ومابعده، ٤/ ٤٩٦ باختصار.

فأسلم الأحوال عن هذا الخطر؛ خاتمة الشهادة][1].

فانظر إلى هذا الكلام من حُجّة الإسلام، وهل تراه جَبُن عن القتال، كما يتّهمه الناقدون من أعدائه، أم أنّ الأبطال في أوهامهم وخيالهم فقط رجال سيف ورماح. وعندما وصفه السبكي أنّه الضرغام، الذي تتضاءل الأُسود بين يديه، كان يعي ما يقول، ويعرف أشكال البطولة وأنواعها.

وقد كان أستاذاً ومُرشداً لمؤسس الدولة الموحدية، وله في الجانب السياسي كتاب (التبر المسبوك في نصيحة الملوك)، وله علاقات مع السلاطين لا يتسع المجال لذكرها هنا.

ويكفيه شرفاً الثناء العطر من أقوال المتقدمين فيه.

فالذهبي -وهو ناقد الرجال- أطلق عليه في (سير أعلام النبلاء): الإمام البحر، حجّة الإسلام، أُعجوبة الزمان، زين الدين، صاحب الذكاء المفرط[2]. وقيل عن (الإحياء): [لو ذهبت كتب الإسلام وبقي الإحياء، لأغنى عما ذهب].

وقال ابن النجار في حقه: إمام الفقهاء على الإطلاق، ورباني الأمّة بالاتفاق، ومن شاع ذكره في البلاد، واشتهر فضله بين العباد، وشهد له الموافق والمخالف بالتقدم[3].

وقال ابن الزيات (ت٦٢٧هـ): وما طعن على الغزالي إلاّ علماء الدنيا الذين أظهر عوارهم، والنهار لا يحتاج إلى دليل] اهـ[4].

---

(١) إحياء علوم الدين، كتاب الأذكار والدعوات، ١/ ٣٠٣.

(٢) سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٣٢٢-٣٢٣.

(٣) ذكره في تاريخه ونقله عنه الإمام السبكي في طبقات الشافعية، ٦/ ٢١٦.

(٤) البطولة والفداء عند الصوفية، للأستاذ أسعد الخطيب، ص١٦٩-١٧١ بتصرف

وبعد هذا الذي استعرضناه، نعرف أن الصوفية بهذه التسمية التي عرضناها هي التي أقامت التوازن التام في مجتمعات أمة الإسلام، وهي رائدة نشر الإسلام في أرجاء المعمورة؛ إذ هي التي حملت الرسالة وأدت الأمانة على الوجه الذي أراده صاحب الشريعة المطهرة، فنشروا الدين ولبّه وروحه بالمحبة الصادقة وبالهمة العالية، لا تعلّق لهم بشيء من زخرف الحياة الدنيا؛ إذ هم فهموا معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾[1]، وأدركوا أنهم هم المخاطبون بقوله.

فحملوا الهداية للناس المقرونة بالأخلاق والتربية حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وإذا ما اضطرت الأمة للجهاد بسبب من أسبابه أو داعية من دواعيه كانوا في الصفوف الأولى ولهم القدم المعلّى فيه، بل لما انحدر الأمر بالأمة بعد التكالب على الجيفة والتنافس على حب الدنيا، وأصبحوا كالقصعة عندما يتداعى عليها أكلتها، وتكالبت عليها الأمم؛ تجرّد أولئك الأفذاذ لخلاص الأمة من براثن المحتل في جميع العصور، مع ضبط السيرة وصفاء السريرة، واستطاعوا النهوض بالأمة بعدما عاين الأعداء انهيارها في جميع الميادين، فإذا بالأمة بفضل هؤلاء الأشاوس تستعيد عافيتها وتنفض غبار الذل والتمزق عن كاهلها، وتدحر هذا العدو الذي لما رأى ذلك عرف أن خصومه الحقيقيين هم الذين يقاومون مخططاته في جميع مجالات حياة الأمة سواء العقدية عندما دسّوا في العقائد وورّدوا للأمة ما عند اليهود من عوج التجسيم،

يسير.

(١) سورة طه، آية ١٣١.

أو ما عند الفلاسفة من ضلال المعتقد، أو ما عند الأمم من انحراف الأخلاق وارتفاع الشهوات وميلها، أو سخافة الثقافات ومجونها؛ عند ذلك عرف الأعداء الحقَّ الذي لابدّ أن يقارَع وأن ينهزم إذا أرادوا السيطرة على أمة الإسلام.

من أجل ذلك رصدوا سهام حقدهم، وصبّوا جامَّ غضبهم على أهل التصوف؛ فألصقوا فيهم ما ألصقوه من أنه انحرافٌ عن الدين، وأنه مأخوذ من البوذيَّة أو غيرها، ونبزوا أهله بالذلّ والجبن والخنوع، والاتحاد والحلول، وحب الدَّعة والكسل، وعدم الجهاد، وتلقّف من هؤلاء المستشرقين كما أسلفنا مَن أخذوا عنهم، ونقلوا ذلك لمن قعدت به نفسه عن نيل ما ناله أولئك الرجال الذين تحملوا أعباء الدعوة والتبليغ والقيام بالجهاد الأكبر والأصغر كما أسلفنا.

ومن أهم ما يكرره أولئك: أن الصوفية لم يجاهدوا ولم يكن فيهم جهاد، وها أنا ذا أستعرض بشكل سريع ما قام به أئمة التصوف ومن سار على دربهم من خاصّ الأمة وعامّها وهم السواد الأعظم، من الجهاد في سبيل الله، وإن كنت قد أفردت كتاباً صغيراً في حجمه يبيِّن ذلك، سميته (الجهاد والصوفية)، ولكن أستعرض هنا بشكل سريع الجهاد عند الصوفية؛ لِأُبيِّن مدى ما قام به هؤلاء الأفذاذ في ميادينه، ولأدحض ما يروّج له الخصوم، ويشوشون به على أبناء أمة الإسلام؛ ليجعلوا التصوف وصمة عار؛ وهو في الحقيقة تاج شرف وعقد سؤدد لكل من انتهجه أو سار في ركبه أو مشى مع أهله، ولكننا في عصر كما أسلفنا تقلب فيه الحقائق ويُصدَّق فيه الكاذب، ويُكذَّب فيه الصادق،

كما أخبر بذلك الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام.[1]

وأصدِّر ما أردت بذكر كلام الشيخ الأكبر ابن عربي، حيث قال في الفتوحات: [ومنهم -أي: الأولياء من الصوفية- السائحون، وهم: المجاهدون في سبيل الله؛ لأن المفاوز المهلكة البعيدة عن العمران لا يكون فيها ذاكرٌ لله من البشر؛ لزم بعض العارفين السياحة صدقة منهم على البيداء التي لا يطرقها إلا أمثالهم، والجهاد في أرض الكفر التي لا يوحّد الله تعالى فيها، فكان السياحة بالجهاد أفضل من السياحة في غير جهادٍ] اهـ[2]. فانظرهم رحمهم الله كيف كانوا على سيرةٍ من الجهاد، وكيف هم في ميادينه.

والجهاد كان منذ القرن الأول، وهو قرن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فقد جاهدوا مع رسول الله ﷺ ولم يتخلف عن الجهاد معه إلا منافقٌ، وقد علمنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد علَّم أمته أركان الدين الثلاثة والتي ثالثها الإحسان، وهو الذي عُنِي به أهل التصوف، وأتت التسمية به بعد ذلك كما في سائر الفنون كما تقدم. فمن هنا نعلم أن الجهاد كان في أهل القرن الأول، ثم في التابعين من بعدهم. ونذكر هنا المجاهدين ممن اشتهروا بالزهد والسلوك والإرادة حتى عُرفوا به في ذلك القرن وهم في ميادين الجهاد، كما قد عُرف في ذلك الوقت من قد ترسّم بالفقه والنحو

جهاد أهل التزكية منذ القرن الأول

(١) وذلك فيما رواه الطبراني في الأوسط والكبير عن أم سلمة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليأتين على الناس زمانٌ يُكذَّب فيه الصادق، ويُصدَّق فيه الكاذب، ويُخوَّن فيه الأمين، ويُؤتمن فيه الخئون، ويشهد فيه المرء ولم يُستشهد، ويحلف المرء وإن لم يستحلف، ويكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع لا يؤمن بالله ورسوله». قال الهيثمي: فيه عبد الله بن صالح كاتب الليث وهو ضعيف وقد وثق.

(٢) الفتوحات المكية، للإمام ابن عربي، ٢/ ٣٣ باختصار.

وغيرهما من سائر العلوم وإن كانت مشتهرة عند جميع أهل العصر.

[يقول علقمة بن مرثد، -المتوفى (١٢٠هـ)-: [انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين، وهم: عامر بن عبدالله، وأويس القرني، وهرم بن حيان، والربيع بن خيثم، وأبو مسلم الخولاني، والأسود بن يزيد، ومسروق بن الأجدع، والحسن البصري]. وقد عدَّهم الباحثون في رأس من عملوا على تأسيس حركة الزهد والتصوف في الإسلام، بعد أن زرع بذورها الصحابة رضوان الله عليهم، وقلّما نجد مَنْ كَتَب تراجم الصوفية؛ إلا ونجد لهم مقاماً وذكراً. وبعد الإمعان والتدقيق في حياة هؤلاء الثمانية، تبين أن سبعةً منهم كانوا من المجاهدين] اهـ[1].

ومن هنا سأوضح إن شاء الله تعالى الجهاد عند الصوفية منذ برز هذا المسمى وقبل بروزه كما أشرنا، فيكون عرض الجهاد عند الصوفية منذ القرون الأولى إلى يومنا هذا، وسأنقل نُبَذاً مختصرة من جهادهم أي: من اشتهر منهم بالتصوف، وإلا فالسادة الصوفية ركيزة في مجتمعات الإسلام منذ القرون الأولى إلى يومنا، وهذه النُّبَذ التي سأذكرها ناقلاً لها من كتاب (البطولة والفداء عند الصوفية)، وقد قدمت ما نقلته من جهادهم في عصر الصحابة أي: من اشتهر منهم بالزهد والعبادة في الجهاد، وذكرت أسماءهم، وأذكر نُبذاً شاهدة على جهادهم مرتباً ذلك على النقاط الآتية:

أمثلة للمجاهدين من الصوفية في القرن الأول

أ- المجاهدون ممن اشتهر بالتصوف في القرن الأول وهو قرن الصحابة.

١- أويس القرني (ت٣٧هـ):

خير التابعين بشهادة سيد المرسلين ﷺ حيث ذكره وأوصى أصحابه

---

(١) البطولة والفداء عند الصوفية، للأستاذ أسعد الخطيب، ص٤٩.

بطلب الدعاء والاستغفار منه، وقال: «يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر»[1].

يروي الثقات كلام أسير بن جابر: أن محدثاً كان بالكوفة يحدثنا، فإذا فرغ من حديثه تفرقوا، ويبقى رهط فيهم رجل (هو أويس) كان يتكلم بكلام لا أسمع أحداً يتكلم بكلام مثله فأحببناه، ثم انقطع عن المجلس، فاستدللت مكانه، وقلت له: يا أخي ما حبسك عنا؟ قال: العري. ثم قال: الوحدة أحب إليّ[2]. وقدم عليه هرم بن حيان فقال له: أهلًا بأخي هرم، فقال له: كيف عرفتني؟ فأجاب: عرفت روحي روحك[3].

ويبدو مما تقدم أن الكلاباذي المتوفى سنة (٣٨٠هـ) عدّ أويساً من أوائل رجال الصوفية ممن نطق بعلومهم ونشر مقاماتهم ووصف أحوالهم قولاً وفعلاً[4].

واتفق أصحاب التواريخ على أنه مات في إحدى المعارك، واختلفوا في المكان والمناسبة، فعن عبد الله بن سالم قال: [غزونا أذربيجان في زمن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعنا أويس، ولما رجعنا مرض علينا فلم يستمسك فمات، فنزلنا فإذا كفن وقبر محفور وماء مسكوب، فغسلناه وكفّنّاه وصلّينا عليه ودفنّاه، فقال بعضنا لبعض: لو نزلنا وعرفنا قبره، فإذا لا قبر ولا أثر][5].

---

(١) أخرجه ابن عساكر وابن عدي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «سيكون في أمتي رجل يقال له أويس بن عبد الله القرني، وإن شفاعته في أمتي مثل ربيعة ومضر».

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الجزري، ١/ ٣٣١. الطبقات الكبرى لابن سعد، ٦/ ١٦١.

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم، ١/ ١٥٧. تاريخ دمشق لابن عساكر، ٩/ ٤٣٣.

(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف، للكلاباذي، ص٢٤.

(٥) صفة الصفوة، ٢/ ٣٢. طبقات الخواص للزبيدي، ص٤١. الزهد لأحمد، ص٣٤٦.

وفي رواية: أنه قتل يوم صفين أو يوم نهاوند. وقال ابن عساكر: [خرج أويس راجلاً إلى ثغر أرمينيا، فأصابه البطن، فالتجأ إلى خيمة فتوفي هناك][1].

٢- أبو مسلم الخولاني (ت٦٢هـ):

صاحب المناقب الغزيرة والكرامات الظاهرة، وهو الذي طرحه الأسود العنسي المتنبئ الكذاب باليمن في النار فلم تضره، وفي (الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية): أنه غزا الروم مع أصحابه فكان يعترضهم النهر العظيم فيقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ويمرُّ على وجه الماء ويمرُّون خلفه[2]. وقال ابن كثير وغيره: [وكان ملازماً للجهاد في كل سنة يغازي بلاد الروم، وله مكاشفات وأحوال وكرامات كثيرة جداً][3].

مات أبو مسلم بداريّا، قال الإمام النووي: [وبداريّا قبران مشهوران يقصدان للزيارة لسيدين جليلين: أبي مسلم الخولاني وأبي سليمان الداراني][4].

٣- هرم بن حيان (ت بعد٢٦هـ):

كان من العباد الخُشَّن المتجردين للعبادة[5]. وهو من عظماء الطريقة

حلية الأولياء، ٢/ ٨٣.

(١) تاريخ دمشق، ٩/ ٤٥٤.

(٢) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، لعبد الرؤوف المناوي، ١/ ٨٥. طبقات الخواص، لشهاب الدين أحمد الشرجي الزبيدي، ص١٩٢.

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير، ٦/ ٢٩٩.

(٤) تهذيب الأسماء واللغات، للنووي، ٣/١٠٨.

(٥) مشاهير علماء الأمصار، لابن حبان، ص١٥٠.

كما يقول الهجويري المتوفى (٤٧٠هـ) في (كشف المحجوب)[١]، فضلًا عن كونه أحد الأبطال الأشداء في الحروب، سمع عن عمر وعثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال ابن سعد في الطبقات: [أن هرماً مات في غزاة في يوم صائف، فلما فرغ من دفنه جاءت سحابة فرشّت القبر حتى تروّى لا تجاوز القبر منها قطرة واحدة ثم انصرفت][٢].

٤- عامر بن عبد الله بن قيس:

كان يصلِّي كل يوم ألف ركعة، أخذ الطريق عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كما في (الحلية)[٣].

وفي (الزهد) لابن المبارك أخبار عن بلاء عامر البلاء الحسن في الجهاد، وفيه أيضاً بعض الكرامات التي وقعت له في الغزو، ويؤثر عنه قوله: [رأيت نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ وصحبتهم، فحدثونا: أن أصفى الناس إيماناً يوم القيامة أشدهم محاسبة لنفسه في الدنيا، وأن أشدهم فرحة يوم القيامة أشدهم حزناً في الدنيا][٤].

٥- الربيع بن خيثم (ت٦٧هـ):

قال له ابن مسعود مخاطباً: [لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك][٥].

ومن أخباره: أنه غزا على فرس، وبعد عوده سرقت أمامه وهو قائم يصلي، قال الربيع: [لم يشغلني عن مناجاة ربي شيء، اللهم إن كان

---

(١) كشف المحجوب، ص١٠٥.
(٢) الطبقات لابن سعد، ٧/ ١٣٤. وانظر الزهد للإمام أحمد، ص٢٨٥. وتاريخ الإسلام للذهبي، ٣/ ٢١٢.
(٣) الحلية، ٢/ ٨٩.
(٤) الزهد للإمام أحمد، ص٢١٧.
(٥) حلية الأولياء، ٢/ ١٠٦.

السارق غنياً فاهده، وإن كان فقيراً فأغنِه][1]. قال عنه الذهبي: [هو قليل الرواية إلا أنه كبير الشأن، وكان من عقلاء الرجال][2].

٦-مسروق بن الأجدع الكوفي (ت٦٣هـ):

كان إذا قحط المطر يستسقى بقبره، أخذ في أحد الأيام بيد ابن أخ له فارتقى به على كناسة (مزبلة) بالكوفة، وقال له: ألا أريك الدنيا؟، وعن الشعبي قال: [حضرت مسروقاً الوفاة فلم يترك ثمن كفن][3].

صحب مسروق كثيراً من أصحاب النبي ﷺ. وقال في حقهم: [وجدت قلوبهم أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم][4].

وممن كان يصحب مسروقاً في الحرب: عمرو بن عتبة بن فرقد الكوفي. قال ابن سعد: كان من المجتهدين في العبادة، فكان وجهه مصفراً، قرأ كلامه تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ فبكى حتى انقطع فما جاوزها حتى أصبح[5].

ومثل هذه الصور ليست تطرفاً في العبادة كما أوهمنا بذلك المستشرقون ومن لفّ لفيفهم، فقد وصف أمير المؤمنين سيدنا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين بقوله: [كانوا يصبحون صُفراً شعثاً غبراً، قد باتوا سجداً وقياماً، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما يميد الشجر يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبتَلَّ ثيابهم][6].

وعن هشام الكلبي عن أبيه قال: [كان مسروق قد شهد القادسية

---

(١) الزهد للإمام أحمد، ص٣١٤.

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ٤/ ٢٥٨.

(٣) طبقات ابن سعد، ٦/ ٨٣.

(٤) عوارف المعارف للسهروردي - باب منشأ علوم الصوفية.

(٥) طبقات ابن سعد، ٦/ ٢٠٦.

(٦) كنز العمال، ١٦/ ٢٠٠.

فجُرح وشُلَّت يده][1].

٧- الحسن بن أبي الحسن البصري (٢١-١١٠هـ):

فإنك لا تجد كتاباً من كتب تراجم السادة الصوفية إلا وهو الصدر المبرَّز فيهم، وهم يعدونه في هرم سلسلة شيوخهم وناشر علومهم، حتى قال أبو طالب المكي المتوفي (٣٨٦هـ): [كان الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أول من أنهج هذا العلم، وفتق الألسنة به، ونطق بمعانيه، وأظهر أنواره، وكشف قناعه][2].

وقد لقي أكثر من مائة صحابي، وورد عنه قوله: [أدركت سبعين بدرياً، وصلّيت خلفهم، ما كان لباسهم إلا الصوف، لو رأيتموهم لقلتم: مجانين][3]، وقال: [ما كل الناس يصلح للبس الصوف؛ لأنه يتطلب صفاء ومراقبة].

والذي يهمنا هنا قول ابن سعد: [أن رجلاً سأل الحسن قائلاً: يا أبا سعيد هل غزوت؟ قال: نعم، غزوت كابل مع عبد الرحمن بن سمرة][4].

ويعضد هذا كلام الحفاظ: [لازم الحسنُ الجهاد، ولازم العلم والعمل، وكان أحد الشجعان الموصوفين في الحرب][5].

---

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد، ٦/ ٧٧.

(٢) قوت القلوب، ١/ ٢٥٨.

(٣) زهد الثمانية من التابعين، لابن أبي حاتم، ص٣٧. التعرف لمذهب أهل التصوف، ص٢٢. الحلية، ٢/ ١٣٤.

(٤) الطبقات الكبرى، ٧/ ١٧٥. وفي تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ١/ ١٦٢.

(٥) تذكرة الحفاظ للذهبي، ١/ ٧١. تهذيب التهذيب، ٢/ ٢٣٥.

ب- أوائل المجاهدين من الصوفية في القرن الثاني:

بعدما عرضنا نماذج من جهاد العبّاد والزهاد في عصر الصحابة رَضِوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ ومن تتلمذ عليهم وأخذ منهم العلم والعمل والسلوك الذي سُمِّي أصحابه في عصرهم بالزهاد والعباد، ثم قُعِّد ومُنهِج حتى أصبح منهجاً واضحاً سُمِّي بالتصوف والسائرون على هذا المنهج بالصوفية، وقد كان جهادهم -أي العبّاد والزهّاد- واضحاً، وذكرنا نماذج أساطينهم في الجهاد كما تقدم، حتى أتى القرن الثاني وقد أصبح المنهج معروفاً، وبدأت تسمية أصحابه بالصوفية. وسنذكر نماذج من أساطينهم وكبرائهم يدل على مستوى هذا المنهج ودوره في الجهاد، فيُستدل بالبعض والأكابر منهم على الكل.

وأبدأ بذكر كبيرين منهم وهما: **محمد بن واسع، ومالك بن دينار:**

أما الأول: فقد دخل على والي خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي وعليه مدرعة صوف خشنة، فقال له قتيبة: [ما يدعوك إلى لباس هذا؟ فسكت محمد ثم أجابه: أكره أن أقول زهداً فأزكي نفسي، أو أقول فقراً فأشكو ربي][1].

وقد عُرف عن محمد بن واسع جهاده في خراسان ومرافقته قتيبة في فتح ما وراء النهر[2].

وأما مالك بن دينار فهو يعد من كبار أهل الطريقة، وممن نطق بعلوم الصوفية[3]. يروي صاحب كنوز الأولياء عنه: أنه كان في طلب الغزو

---

(١) الإحياء، ٤/ ٢٣٥. العقد الفريد لابن عبد ربه، ٧/ ٢٥١.

(٢) مشاهير علماء الأمصار، ص١٥١.

(٣) كشف المحجوب، ص١١٢. التعرف لمذهب أهل التصوف، ص٢٧.

سنين.

ومنهم عتبة الغلام:

أحد العبّاد المشهورين البكائين، كان إذا قرأ القرآن بكى وأبكى، وقد عُرِف بالغلام؛ لأنه تنسّك وهو صبي.

ونقل عن ابن مخلد الصوفي قال: [جاءنا عتبة الغلام فقلنا له: ما جاء بك، قال: جئت أغزو، فقلنا: مثلك يغزو؟ فقال: إني رأيت في المنام أني آتي (المصيصة)[1] فأغزو فأستشهد، فقال: فمضى مع الناس فلقوا الروم فكان أول رجل استشهد].

ومنهم عبد الواحد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وهو من الشيوخ الكبار الذين تكلموا في مواجيد الصوفية وأذواقهم.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [تهيأنا ذات يوم للخروج إلى الغزو، وقد أمرت أصحابي أن يتهيؤوا لقراءة آيتين، فقرأ رجل في مجلسنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾[2]][3].

ويروى عنه أنه قال: سمعت الحسن يقول: [لكل طريق مختصر، ومختصر طريق الجنة الجهاد][4].

ومنهم إبراهيم بن أدهم:

وهذا الإمام يعد إمام المتصوفين الروحانيين، كان أبوه ملكاً لكن الابن تزهد اختياراً لا اضطراراً، وساح في البلاد وجعل الثغور الإسلامية له

---

(١) المصيصة، قال ياقوت: مدينة على شاطئ جيجان من ثغور الشام رابط بها الصالحون قديماً. وانظر عنها مفصلاً (فتوح البلدان) للبلاذري ص١٦٥ ومابعدها.

(٢) سورة التوبة، آية ١١١.

(٣) روض الرياحين، ص٣٦، وقد ذكر بقية القصة فانظرها هناك.

(٤) حلية الأولياء، ٦/ ١٥٧.

مقاماً.

يذكر ابن عساكر أنه كان فارساً شجاعاً ومقاتلاً باسلاً، رابط في الثغور وخاض المعارك ضد البيزنطيين[1].

وقد أثنى على ورعه وزهده الإمام أحمد بن حنبل والأوزاعي وسفيان الثوري والنسائي وغيرهم.

مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما قال ياقوت وابن كثير وهو قابض على قوسه يريد الرمي به على العدو، وذلك وهو مرابط في جزيرة من جزائر بحر الروم سنة (١٦٢هـ)[2].

ومنهم شقيق البلخي:

من أكابر علماء الصوفية. قال حاتم: كنا مع شقيق في مصاف نحارب الترك[3] في يوم لا تُرى إلا رؤوس تطير ورماح تقصف وسيوف تقطع، فقال لي: كيف ترى نفسك يا حاتم في هذا اليوم، تراه مثل ما كنت في الليلة التي زُفَّت إليك امرأتك؟ قال: قلت: لا والله، قال: لكني والله أرى نفسي في هذا اليوم مثل ما كنت تلك الليلة[4]، ومات في غزوة (كولان) ما وراء النهر سنة (١٩٤هـ)[5].

ومنهم علي بن بكار:

صحب إبراهيم بن أدهم في غزواته في سواحل الشام وفي غزواته

---

(١) انظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر، ٦/ ٢٧٧ وما بعدها.

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، ١٠/ ١٤٥.

(٣) المقصود بهم: الروم.

(٤) سير أعلام النبلاء، ٦/ ٣١٦. تاريخ دمشق، لابن عساكر، ٢٣/ ١٤٤. حلية الأولياء، ٨/ ٦٤.

(٥) الأعلام للزركلي، ٣/ ١٧١.

البحرية، وسكن المصيصة مرابطاً بها إلى أن مات سنة (١٩٩هـ)[١].

قال ابن الجوزي: [بلغنا عن علي بن بكار أنه طُعن في بعض مغازيه فخرجت أمعاؤه فردّها إلى بطنه وشدّها بالعمامة وقاتل حتى قتل ثلاثة عشر عِلجا][٢].

ومنهم عبد الله بن المبارك:

وهو أشهر من نار على علم، كان يغزو سنة ويحج سنة ويتّجر سنة، وما يحصل من تجارته يوزعه على الفقراء. خرج من بغداد يريد ثغر المصيصة فصحبه الصوفية[٣].

وغير هؤلاء الكثير الكثير حتى أن ابن الجوزي يفرد فصلاً خاصًا للصوفية الأوائل الذين رابطوا في العواصم والثغور في القرن الثاني الهجري، منهم: محمد بن يوسف الأصبهاني (ت١٨٤هـ)، ومنهم عيسى بن يونس ابن أبي إسحاق السبيعي وقد توفي بالحدث من أرض الروم سنة (١٨٨هـ)، ومنهم أبو معاوية الأسود الذي كان يمضي معظم أوقاته مرابطاً في ثغر طرطوس وغيرهم الكثير الكثير، ومهما يكن من أمر فإنه كما قال أحد الباحثين: [جسّد الصوفية باندفاعهم إلى ميادين الجهاد الارتباط الإسلامي بين العبادة والجهاد، وأشاعوا في أماكن تواجدهم سواء في المعارك أو الثغور أو الرباطات شعوراً دينياً خاصًّا كان له أبعد الأثر في الصمود والنصر في كثير من المواقع][٤].

---

(١) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، ١/ ١٤١.

(٢) صفة الصفوة، ٢/ ٤١١. والعلج: الرجل القوي الضخم من كفار العجم كما في لسان العرب، ٢/ ٣٢٦.

(٣) تاريخ بغداد، ١٠/ ١٥٧.

(٤) انظر مقال: (المتطوعة ودورهم في حراسة ديار العروبة والإسلام)، مجلة العربي

ج- بعض من نماذج الصوفية المجاهدين في القرن الثالث:

يقول صاحب كتاب (البطولة والفداء): [ممًّا يستفاد من رواية لابن العديم أنه في هذا العصر تجمَّع الصوفية من كل صوب في ثغور الشام، إذ وفدوا إليها جهاداً في سبيل الله للوقوف في وجه البيزنطيين، منهم: أبو القاسم الأبّار، وأبو القاسم القحطبي، وأبو القاسم الملطي الصوفي الذي صحب الجنيد البغدادي][1].

ومن مشاهيرهم أيضاً: حاتم الأصم القدوة الرباني، توفي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو مرابط على جبل فوق واشجرد سنة (٢٣٧هـ)[2].

ومنهم: أبو يزيد البسطامي الملقب بسلطان العارفين (ت٢٦١هـ)، كان خلال وجوده في الثغر يحرس طيلة الليل ويرابط ويتعبد ويذكر الله.

-هكذا هم السادة الصوفية فرسانٌ بالنهار رهبانٌ بالليل، مع استقامة الأخلاق والمعتقد والتعلق بالله- ولذلك كان يقول: [أقامني الحق مع المجاهدين أضرب بالسيوف في وجه أعدائه][3].

ومنهم محمد بن إبراهيم أبو حمزة الصوفي (ت٢٦٩هـ): كان عالماً بالقرآن، جالس الإمام أحمد بن حنبل وبشر بن الحارث[4].

قال الإمام الجنيد عنه: [حُبِّب إلى أبي حمزة الغزو، وكان يأتي بلاد

(الكويتية) العدد ٢٨٧ د. إحسان صدقي.

(١) البطولة والفداء، ص٦٩. انظر بغية الطلب، ١٠/ ٤٥٩١. وانظر الحياة السياسية في بلاد الشام، ص٣٨.

(٢) شذرات الذهب وفيات عام (٢٣٧هـ). طبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي، ص٨٦.

(٣) انظر أبو يزيد البسطامي، لـ د.عبد الحليم محمود، ص٧٣.

(٤) تاريخ بغداد، ١/ ٣٩٠.

الروم والناس بالسلاح وعليه جبة صوف][1].

ومنهم بل من أكابرهم: العارف بالله السري السقطي (ت٢٥٣هـ)، والذي ينتمي إليه أكثر مشايخ الصوفية، حكى عنه المؤرخون بعض المجاهدات التي مارسها أثناء نزوله في أرض الروم[2]. وأثنى عليه الإمام أحمد. قال الحسن البزَّار: سألت أحمد بن حنبل عن السري بعد قدومه من الثغر فأثنى عليه[3].

ومن أعظم تلاميذه ابن أخته: الجنيد بن محمد أبو القاسم الخزاز سيد الطائفة والملقب عندهم بالأستاذ ت(٢٩٧هـ)، وقد أجمع العلماء قاطبة على فضله وإمامته وتقدمه، حتى عدّه ابن الأثير [إمام الدنيا في زمانه][4]، وقال عنه ابن كثير: [وكان يعرف سائر فنون العلم][5]، ومع هذا كله لم يمنعه من الجهاد والغزو كما هو ديدن هذه الطائفة العظيمة. فقد قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: [خرجت يوماً في بعض الغزوات وكان قد أرسل إليَّ أمير الجيش شيئاً من النفقة فكرهت ذلك ففرقته على محاويج الغزاة][6].

ومنهم: أبو إبراهيم إسماعيل الصوفي أخو إبراهيم الخواص[7].

ومنهم: أحمد بن عاصم الأنطاكي من متقدمي مشايخ الثغور[8]، وهو

---

(١) طبقات الأولياء للسخاوي، ورقة ٦١أ.

(٢) انظر تاريخ بغداد، ٩/ ١٨٨.

(٣) صفة الصفوة، ٢/ ٣٧٨.

(٤) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ٦/ ٦١١، وعدَّه من وفيات سنة ٢٩٨هـ.

(٥) البداية والنهاية، لابن كثير، ١١/ ١٢٨.

(٦) روض الرياحين، ص٢١١.

(٧) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ٦/ ٢٨٠.

(٨) صفة الصفوة، لابن الجوزي، ٢/ ٤١٧.

من أقران الحارث المحاسبي وأبو سليمان الداراني، وكان الداراني يخرج إلى بعض الثغور كما حكاه ابن كثير في وفيات سنة (٢٠٥هـ)[1]، وقد نعته ابن العماد: [الزاهد القدوة، أحد الأبدال، كان عديم النظير زهداً وصلاحاً، وله كلام رفيع في التصوف والمواعظ][2].

وغير هؤلاء كثير، وإنما ذكرنا من ذكرنا كأنموذج ليعرف من انتسب إلى أهل هذه الطريق كيف كانوا في جميع الميادين.

يقول صاحب كتاب البطولة والفداء: [وعلى كلٍّ فإن هذه الشخصيات العجيبة، والبطولات الفذة، ليست إلا بعض النماذج التي حفل بها التاريخ الإسلامي.

والجدير بالذكر أنه لم ينتهِ القرن الثالث الهجري، إلا وكان هؤلاء العارفون المجاهدون وأضرابهم من الصوفية الوعَّاظ المرشدين، قد شكَّلوا منهجاً كاملاً لأصول طريقهم، كما رسمها الكتاب والسنة، على ما ثبت في تاريخ الإسلام. ففي هذه الآونة بلغ التصوف مرحلة النضج والكمال، وأصبحت له قواعد معروفة، كما شكَّل الفقهاء المذاهب الفقهية المشهورة، وأصحاب الحديث علم الحديث، وشكَّل علماء اللغة علم النحو، وأصبحت الصوفية طبقة خاصة متميزة، ترفّعت عن ملاذِّ الدنيا وشهواتها، وجمعوا -على حدِّ تعبير الكلاباذي[3]- بين علوم المواريث وعلوم الاكتساب، وكان أولئك العارفون من السلف الصالح أساتذة لمن أتى بعدهم وسار على منوالهم، ويمكن اعتبارهم

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير، ١٠/ ٢٨١.

(٢) شذرات الذهب، لابن العماد، ٣/ ٢٨.

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف، ص٣٦.

صلة الوصل بين سلوك الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وبين سلوك الصوفية الصادقين من اللاحقين، حيث لم يترك المتقدمون للمتأخرين إلا بعض الشروحات والتفاسير.

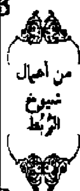
فهذه القرون الثلاثة الأولى التي شهدت ظهور الزهد والتصوف، شهد لها رسول الله ﷺ بالخيرية في حديثه الصحيح(١).

وإذا مضينا نستقرئ بعضاً من أسماء الصوفية الذين وقفوا حياتهم على جهاد الأعداء في القرنين الرابع والخامس لضاق الكتاب. نخصّ منهم بالذكر:

أبا محمد بن مرزوق الصاقري، قال ياقوت: [وكان ذا فتوة، صحب أبا يعقوب النهرجوري المتوفى (٣٣٠هـ)، وقُتل بنواحي طرطوس شهيداً](٢).

ومِمَّن رابط على السواحل، نقرأ في (تاريخ ابن عساكر) عن:

إبراهيم بن علي الحسين العتابي الصوري (ت٤٧١هـ) واصفاً إياه: [شيخ الصوفية بالثغر، كان ذا سمت حسن وطريقة مستقيمة](٣).



ومن المستحسن ذكره أن شيوخ الرُّبُط كانوا يقيمون زوايا لهم، تُعقد فيها حلقات الذكر، ومدارسة العلم، وتُتخذ في الوقت نفسه مراقب للسفن المعادية. وكان التوضؤ بماء البحر والصلاة على رماله؛ من أهم التقاليد التي يحرص عليها شيوخ الزوايا وأتباعهم، حتى أنهم فضّلوا عند موتهم أن يدفنوا على الساحل. مثالٌ على ذلك في الإسكندرية:

---

(١) في قوله ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذي يليه ...» وقد تقدم تخريجه.
(٢) معجم البلدان، لياقوت الحموي، ٣/ ٣٨٩.
(٣) تاريخ دمشق، لابن عساكر، ٧/ ٦٢.

سيدي بشر، وسيدي جابر، وسيدي علي الشاطبي، وسيدي العجمي.

ولا مجال هنا للاستكثار من الشواهد، فهي موجودة في بطون أمهات الكتب العربية. وبالجملة فلم يُقعِد الزهد والعبادة الصوفيين عن الجهاد في سبيل الله، والتفتيش عن مرضاته، والشوق إلى لقائه.][1]اهـ.

الدافع للجهاد عند الصوفية

وبعد هذا العرض المقتضب للجهاد الحق عند الصوفية منذ القرن الأول إلى الثالث، وتأسيس معنى الجهاد بعد استقامة التربية وصفاء السرائر والتعلق بالله، والعمل من أجل مرضاته، لا لدنيا ولا لشهرة ولا لغرض من أغراضها الزائفة؛ لا لوصولٍ لسمعة وجاه، ولا سعياً وراء سلطة ودولة، وإنما في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ولهداية البشرية جمعاء، وللقيام برسالة السماء؛ رحمةً وشفقةً على خلق الله، وإنقاذهم بالدخول في الدين المنجي من عذاب الله، وقياماً بالرسالة التي أوجبها الله على أهل هذه الملة، فإن جهادهم كما هو عليه الجهاد من قِبَل صاحب الشريعة المطهرة، لا لاستعباد الشعوب ولا لنهب خيراتها وثرواتها، وإنما لهدايتها وإنقاذها من عذاب الخلود، فكان هذا هو المنهج الذي سلكه أهل السلوك والإرادة (الصوفية)، والذي رسَّخوه في قلوب الأمة منهجاً راقياً زاكياً يبيّن عظمة الإسلام وعلوَّ همته.

الفتوة من أهم المبادئ عند الصوفية

ومن علوِّ الهمة الذي ارتسمه أولئك السائرون على المنهج المصطفوي والشرع المحمدي: (الفتوة) التي لا بدَّ وأن تكون حاضرة في جوانح المسلم الحق السائر على الهدى والصراط المستقيم، فهي من أهم المبادئ عند السادة الصوفية، حتى قيل: لا يكون الصوفي كاملاً إلا إذا تفتّى، وإنه لا خير لمن لا فتوة عنده. يقول ابن عربي: [اعلم أن للفتوة مقام

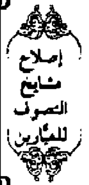
(١) البطولة والفداء عند الصوفية، ص٧٤-٧٦.

القوة، ومن لا قوة له لا فتوة له][1].

بل واستخرج هؤلاء مبدأ الفتوة من أنه عليه الصلاة والسلام هو سيد الفتيان، ومنها فتوة علي رضي الله عنه، واستنادًا لما حصل من مبايعة الرسول ﷺ لأصحابه البررة تحت الشجرة، وهي بيعة الرضوان المشار إليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾[2]، وقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾[3].

بل إن هذا المبدأ وإن كان موجوداً عند النبي ﷺ وأصحابه والتابعين من أهل القرون الأولى؛ إلا أنه قُعِّد له وأُسِّس ومُنْهِج عند السادة الصوفية برسمٍ فنيٍّ علميٍّ عملي، فأول من ألّف فيه كتاباً العالم الجليل والصوفي الكبير أبو عبدالرحمن السلمي (ت٤١٢هـ)، وتبعه في ذلك ابن المعمار الحنبلي (ت٦٤٢هـ).

وقد ذكر المؤرخون نماذج من فتوة أهل الطريق من أمثال:شاه بن شجاع أبو الفوارس الكرماني (ت٢٩٩هـ)، وأحمد بن خضرويه البلخي (ت٢٤٠هـ)، ومعروف الكرخي (ت٢٠٠هـ)، وغيرهم الكثير الذين مُلِئت بهم كتب التاريخ والتراجم.



بل وكم لهم من إصلاحات يصلحون بها الأمة، ويسدون بها عورها، فإن من محاسنهم العظيمة التربية الحسنة التي ينتزعون بها

(١) الفتوحات المكية، ١/ ٢٤١.
(٢) سورة الفتح، آية ١٠.
(٣) سورة الفتح، آية ١٨.

الأفراد والمجتمعات من الاعوجاج إلى الاستقامة، فهؤلاء العيَّارون[1] المفسدون في المجتمع مع ما انتحلوه من صفات الفتوة الناقصة، وهي التي تنبني على الشجاعة والإقدام في السلب والنهب والترويع، فأتى السادة المعتبرون من أهل التصوف وأصلحوا الفاسد، وانتشلوا العيارين من أوحال المفسدة إلى المصلحة مع بقاء الصالح، وذلك بالقدوة والحكمة والموعظة الحسنة والمثال الصادق ومحبة المجتمع لهم الخيِّر منهم والمنحرف، فركَّزوا على المروءة والشرف والأُخوَّة عند العيَّارين، فدخل أولئك في طريقهم أفواجاً.

ومن أبرز هؤلاء المشايخ من أهل التصوف الذين أخذوا بيد أولئك: سيدي الإمام الجهبذ الشهير الشيخ عبد القادر الجيلاني -قدس الله سره-، يذكر من نقل عنه من الدارسين أنه تاب على يديه من العيَّارين أكثر من مائة ألف[2].

سار هؤلاء في ركب الزهادة عن الدنيا وابتغاء ما عند الله ومرضاته تعالى، وقد شكّل هؤلاء قوة هائلة دينية وعسكرية متزنة في جهاد النفس والعدو المتربص بالمسلمين، خاصة في الثغور، وقد لحق أمثال هؤلاء بالأربطة التي أنشأها مشايخ الصوفية في جميع الثغور، وأخذوا بالمرابطة في سبيل الله تعالى وخاصة في العصور التي غزا فيها الصليبيون والتتار ديار المسلمين، فأعلنوا ضدَّهم الجهاد الديني المقدس، حمايةً لثغور وديار وبيضة المسلمين من أن يجتاحها العدو، وقد طال بهم القيام في

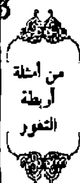
---

(١) العيارون: هم قوم تمالئوا على قطع الطريق ونهب الناس وسفك الدماء، وهم الذين تُسُمُّوا أيضاً بالشُّطار.

(٢) قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر، للشيخ محمد بن يحيى التادفي الحنبلي، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي - مصر، ط ١٣٥٦هـ ص١٩.

هذه الثغور حتى لُقِّب الصوفية بـ(فتيان الثغور).

يقول المقريزي: [الرُبُط: جمع رباط، وهو دار يسكنها أهل طريق الله، وهو بيت الصوفية ومنزلهم. والمرابطة: ملازمة ثغر العدو، وقيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم: رباط. فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه، والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن البلاد والعباد][1] اهـ.



ونقتصر على ذكر أمثلة للأربطة الصوفية على سبيل الإشارة، وإلا فإن المؤَرِّخين ذكروا أنه في بلاد ما وراء النهر فقط في أواخر القرن الرابع الهجري ما يربو عن عشرة آلاف رباط[2].

فمن أمثلة الأربطة الساحلية: برجٌ عمَّره الشيخ العارف بالله أبو العباس الرملي المقدسي، وكان كثير المرابطة فيه. ورباط أبي الفتح الواسطي (ت٥٨٠هـ) في ثغر الإسكندرية، وهو من تلاميذ سيدي أحمد الرفاعي.

وفي برِّ الشام اشتهر رباط العالم الصوفي أرسلان الدمشقي (ت٥١٤هـ)، صاحب الرسالة المعروفة في التوحيد والتصوف، الذي لم يكن رباطه يقع داخل سور دمشق بل خارجها، كأنه مخفر يأوي إليه حرس الحدود والذين يطوفون حول المدينة بعد إغلاقها ليلاً كي لا يكون هناك عدو مباغت. وكان المريدون يترددون إلى رباطه يتعلمون فيه جميع أنواع الدراسة، ويتدربون على الفنون الحربية للوقوف في وجه

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، لتقي الدين المقريزي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١ ١٤١٨هـ، ٤/ ٢٠٣ بتصرف.

(٢) المسالك والممالك، لأبي إسحاق إبراهيم الإصطخري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ص١٦٣.

الصليبيين، حتى لُقِّب الشيخ أرسلان بحق (إمام السالكين وشيخ المجاهدين)، وحتى الآن لا يزال أهالي دمشق يذكرونه ويرددون الأنشودة المعروفة (شيخ رسلان يا شيخ رسلان ياحامي البر والشام). وقبره معروف يزار[1].

د ـ نماذج من جهاد الصوفية من القرن السادس وحتى العصر الحديث:

لاشكَّ أن القرن السادس الهجري قد شهد الحملات الصليبية وما فعلته في بلاد الإسلام وأعقبها حملة التتار وأشباهها لبلاد الإسلام، كما شهد قوة المجاهدين من أهل التصوف في ميادين التصدي لهؤلاء الغزاة ودحرهم على مختلف مراتبهم أعني سلاطين وقادة وعلماء وأتباع، وسأسير إلى المراد في خمس نقاط تُعطيك صورة كاملة عن جهاد الصوفية وتأثيرهم على مجتمعات المسلمين للتحرر من نير الاستعمار وتبعية المسلم لعدوه، وأبدأ هذه النقاط بنور الدين إلى العصر الحديث:

١ - الصوفي نور الدين محمود زنكي.

٢ - الصوفي صلاح الدين الأيوبي.

٣ - الصوفي الظاهر بيبرس.

٤ - الجهاد عند علماء وفقهاء الصوفية، وعند السلطان الصوفي محمد الثاني فاتح القسطنطينية.

٥ - الجهاد في العصر الحديث عند الصوفية.

---

(١) البطولة والفداء عند الصوفية، للأستاذ أسعد الخطيب، ص٨٣-ص٨٥.

١- نور الدين محمود زنكي (٥١١-٥٦٩هـ):

الصوفي نور الدين محمود زنكي هو المعروف عند الخاصِّ والعامِّ بمدى التصاقه الشديد بالصوفية، وتلمذته عليهم، وحُبِّه لهم، وتقريبه إياهم، وزيارته لهم.

منهم: الشيخ القدوة حياة بن قيس الحراني (ت٥٨١هـ)، وكان صاحب أحوال وكرامات، زاره السلطان نور الدين وتبرك بلقائه، فقوَّى عزمه على جهاد الفرنجة ودعا له[1].

ومنهم: الشيخ عماد الدين أبو الفتح ابن حمويه نزيل دمشق. أقبل عليه نور الدين والتزمه.

ومنهم: ابن الصابوني الزاهد، كان مارًّا بدمشق وقد سأله نور الدين الإقامة بها فذكر له أن قصده زيارة الإمام الشافعي فجهَّزه إلى مصر.

وعندما فتح نور الدين الموصل سنة ٥٦٦هـ؛ قصد الشيخ عمر الملا في زاويته، وكان يستشيره في أموره ويعتمد عليه في مهماته[2].

ولم يكن يقتصر تعظيمه للأحياء من شيوخ الصوفية، بل وللأموات منهم، فقد خرج سنة (٥٦٥هـ) إلى داريًا وتبرك بضريح أبي سليمان الداراني المتوفى (٢٠٥هـ)، وعمّر مشهده، كما في (البداية والنهاية) لابن كثير[3].

وعزم على تجديد قبة الإمام أبي حنيفة النعمان، لكنه عدل عن ذلك لـمَّا رآها في حالة جيدة.

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٢١/ ١٨٢.
(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، ١٢/ ٣٢٧.
(٣) ١٢/ ٣٢٤.

ومن المعلوم أن الذي بناها السلطان السلجوقي ألب أرسلان المجاهد الفذّ الذي كسر الروم في معركة (ملاذكرد)[1]. قال عنه ابن كثير في كلامه على وفيات الأعيان سنة (٤٦٥هـ): [وفيها -أي توفي- ألب أرسلان سلطان العالم، كان عادلاً سيرته حسنة كثير الدعاء ...][2].

أترى هؤلاء السلاطين الصالحين المجاهدين الفاتحين، الذين خدموا الإسلام واتصلوا برجال العلم والتقوى والاستقامة والعمل، يقيمون المشاهد والقبب ويزورون الأضرحة التي يقول عنها المتمسلفة في هذا العصر شركاً وكفراً وعبادة لغير الله، وهم على قدم العبادة واستقامة المعتقد والتعلق بربهم في جميع أدوار حياتهم. يقول الذهبي وغيره عن نور الدين: [كان يلبس الصوف، ولازم السجادة والمصحف، وله أوراد حسنة، وكان حنفياً، ولا يُذكر في مجلسه إلا أحوال الصالحين، والمشورة في أمور الجهاد، وكان من أقوى الناس بدناً وقلباً، وأنه لم يُرَ على ظهر فرس أشد منه، وكان يباشر القتال بنفسه، ويقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها][3]. قال الذهبي: [وقد أدركها على فراشه، وبقي ذلك في أفواه الناس تراهم يقولون: نور الدين الشهيد][4].

وقد ألقى الله تعالى محبته في قلوب الخلق، فلا ترى إلا مترحماً عليه زائراً قبره متوسلاً به إلى الله تعالى في قضاء حاجته. قال ابن عساكر وغيره: [وقد جُرِّب استجابة الدعاء عند قبره رَحِمَهُ اللهُ][5].

---

(١) وفيات الأعيان، لابن خَلِّكان، دار صادر ـ بيروت، ٥/ ٧٠.

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، ١٢/ ١٣٠.

(٣) سير أعلام النبلاء، ٢٠/ ٥٣٤ ـ ٥٣٧.

(٤) سير أعلام النبلاء، ٢٠/ ٥٣٧.

(٥) شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، ٤/ ٢٣١.

وسجّل ابن الأثير في (الباهر) وغيره: [طالعت تواريخ الملوك المتقدمين فلم أرَ منها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولقد طبّق ذكره الأرض وكأن الله قد كمّله][1].

فانظر يا من سلكت واتبعت طريق أهل التصوف من زيارة الصالحين من الأحياء حال حياتهم، والتزمت طرقهم، ويا من زرت الأموات في قبورهم ومشاهدهم، أنك على قدم الأخيار من أمة محمد ﷺ. فلا يهولك ما يروّج له الجهلة والأغمار الذين لا يعلمون من العلم شيئاً، وليس لهم في الأخلاق سلوكٌ، ولا في الناس ذوق، وإن ارتفعت عقيرتهم بالعقيدة وتصحيحها، فحاشا لله أن يكون أهل الله إلا على سلامة المعتقد والسلوك والإسلام والدين.

٢- الصوفي الشهيد صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ):

نشأ صلاح الدين وترعرع في بيئة يغلب عليها طابع التصوف، فأبوه الأمير نجم الدين أيوب (ت٥٦٨هـ)، كان خيّراً، حسن السيرة، كثير الإحسان إلى الفقراء والصوفية والمجالسة لهم.

ويصف لنا جمهور المؤرخين شخصية صلاح الدين بقولهم: كان رَحِمَهُ اللهُ حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم، وقد جمع له الشيخ أبو المعالي النيسابوري

---

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ٩/ ٣٩٤. التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، لابن الأثير، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة، ط ١٩٦٣م، ص١٦٢ ـ ١٦٤.

المنعوت بـ(القطب)[1] عقيدة سليمة في علم الظاهر والباطن، وقد كان شافعيَّ المذهب، أشعريَّ الاعتقاد، يلقِّن أولاده من صغرهم عقيدة الأشعري، كما كان يلقِّنهم القرآن، فضلاً على أنه يحفِّظهم منظومة تتضمن آراء الإمام الأشعري. سلك صلاح الدين طريق زهد الصوفية لدرجة أنه كما قال ابن شداد (سكرتيره وقاضيه): [مات رَحِمَهُ اللَّهُ ولم يحفظ ما تجب عليه الزكاة].

والروايات كثيرة تؤكد زهد صلاح الدين وتقشفه في مأكله وملبسه بينما يغدق كرمه على الفقهاء والصوفية، ويوقف القرى بما تملك من موارد وأرباح، خدمة للزوايا ودور الفقراء وإعمار المشاهد الدينية لأضرحة الأولياء والصالحين.

فانظر هنا يا من تزور المشاهد للأولياء والصالحين، هل تجد أن فاتح بيت المقدس -كما يزعم المروِّجون- من عُبَّاد القبور، أم أن هذا طريق السند والاتصال بصاحب الشرع الذي سنّ لنا مثل ذلك.

وقد رأى ابن جبير عدداً كثيراً من المشاهد التي تُزار ويُتبرك بها ويلجأ[2] إليها الغرباء والصلحاء، وقال: ومنها قبة الإمام الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو يصفها أنها من المشاهد العظيمة، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يقول للقائم عليها: زد احتفالاً وتأنقاً وعلينا القيام بمؤونة ذلك كله[3].

---

(١) انظر ترجمته في جامع كرامات الأولياء، ٣/ ٤٤٤.

(٢) اللجوء للمشاهد: النزول عندها، ويجد النازل الغريب المأكل والمشرب والمأوى فلا يضيع الغريب عند نزوله إلى البلد، وهذه من ضمن مآثرهم ومشاركتهم في الحياة الاجتماعية ورفع الحرج عن الناس عندما يخرج ضيف فلا يتكلف إليه أهل القرية، بل ينزل عند المقامات، فيجد المأوى والمشرب والمأكل.

(٣) رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت، ط١، ص٢٢ ـ ٢٣.

وكما هو معروف فقد زار -قُدِّست روحه- قبر الإمام الشافعي للتبرك به.

وصلاح الدين والتصاقه بالصوفية معروف، وجهاده للفرنجة وإخراجهم من بلاد الشام وتحريره للقدس مشهور، وكان في جميع جهاده يستصحب معه الصوفية للقتال والتبرك والنصر بهم. فإذا كانت المصادر اللاتينية تتحدث أن القوة القتالية في جيش الإفرنج تمثّلت بطائفة الفرسان، فقد تصدى لها البطل صلاح الدين باعتماده على جماعة الصوفية الزهّاد، فأوكل إليهم قتل هؤلاء الفرسان، وتخليص الناس من شرورهم، لأن هؤلاء الصوفية كانوا أشد شوكة[1].

بل إن صلاح الدين الأيوبي أول من أنشأ خانقاه للصوفية بمصر، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة.

بل وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أينما حلَّ ونزل يبني المدارس الشرعية والمدارس الروحية جنباً إلى جنب، فخلال فتح صلاح الدين للقدس سنة (٥٨٣هـ) أمر المسلمين بالمحافظة على كنيسة القيامة، وبنى بالقرب منها مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباطاً للصلحاء الصوفية، وأوقف عليها وقوفاً وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفاً. وفي فتحه لعكّا، أوقف نصف دار (الإستبار) رباطاً للصوفية، ونصفها مدرسة للفقهاء.

ولا نجد غرابة من صلاح الدين في فعل مثل هذه الأشياء الحسنة، لا سيما إذا علمنا أن الفريقين قد رافقوه في معاركه وفتوحاته. ويبرز المؤرخون لنا هذا الحضور وخاصة فتح القدس. قال ابن خلّكان:

---

(١) انظره في كتاب رجال ومواقف لبسام العسلي ص٢٢٦، نقلاً من كتاب البطولة والفداء.

[وكان فتحه عظيماً، شهده من أهل العلم خلق، ومن أرباب الخِرَق[1] والزهد عالم][2]. ويعزِّز هذا الكلام قول ابن الوردي في تاريخه: [وشهد فتحه كثير من أرباب الخرق والزهد والعلماء في مصر والشام، بحيث لم يتخلّف منهم أحد][3].

ولما مات صلاح الدين وجد عليه الناس وجداً شديداً، لأنه كان مثالاً من أمثلة الرعيل الأول بارتباطه بأهل العلم والولاية والصلاح والعدل والورع والزهد والتقوى والاستقامة، حتى قال الذهبي: [وَجَد الناس عليه شبيهاً بما يجدونه على الأنبياء، وما رأيت ملكاً حزن الناس لموته سواه][4].

٣- الصوفي القائد والسلطان الظاهر بيبرس (٦٠٧-٦٧٦هـ):

وهو قائد معركة (عين جالوت) والمنتصر فيها، وكاسر المغول فيها.

إن هذا السلطان العظيم يأتي في المرتبة نفسها التي احتلها صلاح الدين ونور الدين، وذلك للوقائع الهائلة التي حققها على التتار وبقايا الصليبيين وتوّجها بمعركة (عين جالوت)، التي كسرَ فيها التتار الذين استباحوا بلدان المسلمين، بل واستباحوا العراق ودخلوا بغداد وقتلوا الخليفة العباسي فيها، ونشروا الذعر، وتولّد أنهم لا يُكْسَرون، حتى كسرهم هذا البطل المتصوف المرتبط بشيوخ الصوفية والمعظِّم لهم والمحِبُّ الحقيقي لهؤلاء الرجال، الذين عرف فيهم معنى الصدق

---

(١) المراد بهم أهل التصوف.

(٢) وفيات الأعيان، لابن خلكان، ٧/ ١٧٩.

(٣) تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، ٢/ ٩٥.

(٤) سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٢٨٣.

والإخلاص والقرب من الله تعالى، لذا كانت علاقته وطيدة مع أهل التصوف في عصره مكرماً لهم.

قال ابن شدَّاد: [وأقام زوايا للمشايخ بدمشق والقدس، وأغدق عليها أعمال البرّ، وهذا من فرط ما لهم في قلبه من المحبة والرغبة وصفاء النية وحسن العقيدة، وإذا ما ورد عليه المشايخ من أهل الحجاز والحرم النبوي كان يعظِّمهم ويتبرك بهم][1].

ويشبه هذا الكلام قول صاحب سيرته: [لما علم -تغمده الله برحمته- أن أفضل ما يتقرب به المتقرب إلى الله تعظيم أوليائه، ثابر على الوفود عليهم والتردد إليهم والقيام بحقوقهم والاهتداء بلوامع بروقهم، وصحب جماعة متأدباً بآدابهم، ينكس رأس العزِّ لديهم بالخضوع][2].

ويبرز في طليعة من أخذ عنهم، وتأدب بهم، وقرب منهم: الولي الشهيد سيدي أحمد البدوي (ت٦٧٥هـ)، وأخوه الشريف حسن.

يروي صاحب (شذرات الذهب): [أنه لما وصل السيد أحمد البدوي إلى مصر قادماً من المغرب، تلقاه الظاهر بيبرس بعسكره وأكرمه وعظَّمه[3]]، وانتسب إلى طريقته[4].

وكذلك الشيخ الكبير خضر الكردي العدوي (ت٦٧٥هـ)، فقد كان الظاهر بيبرس معظِّماً له مشاوراً إياه في جميع أموره، يقول ابن كثير: [كان السلطان ينزل بنفسه إلى زاويته بجبل المزة في كل أسبوع مرة أو مرتين، ووقف على زاويته شيئاً كثيراً جدًّا، وكان معظَّماً عند الخاص

---

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ط١ ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م، ص٢٣ وما بعدها.
(٢) تاريخ الملك الظاهر ص٢٧١.
(٣) ٥/ ٣٤٥.
(٤) الأعلام للزركلي، ١/ ١٧٥.

والعام...][1]. وكان بيبرس يستشيره في أموره ولا يخرج عما يشير به، ويأخذه معه في أسفاره وغزواته، وأطلق يده وصرَّفه في مملكته[2].

بل ويحدثنا ابن عبد الظاهر رئيس ديوان السلطان عن حضور الصوفية للحروب مع الظاهر، فيقول: [وحضر العبَّاد والزهَّاد والفقهاء والفقراء (الصوفية) إلى هذه الغزاة المباركة التي ملأت الأرض بالعساكر...][3].

فانظر إلى هذا القائد العظيم والسلطان المبارك الذي أقام الله به عزَّ الأمة بعد ذُلِّها وخنوعها من قبل التتار الهمج الذين اكتسحوا بلدان المسلمين، كيف ارتباطه بهؤلاء الرجال الأفذاذ أهل القرب والوداد، وتعظيمه لهم واستشعاره النصر من الله بالقرب منهم والتقرب إليهم والارتباط بهم، وانظر إلى ما يقوله المغرضون من التنفير عن أهل الله وإطلاق ألسنتهم العفنة وأقلامهم المأجورة المأزورة وترديد الجهال لما يقولونه عن السادة الصوفية أهل الله في أرضه مع تعلق الناس بهم في جميع العصور، بل إن السادة الصوفية هم ملجأ الأمة عند اشتداد المِحَن عليها، وهم هداتهم عند تخبطهم في ظلمات الحيرة والجهل، وهم الآخذون بيد الأمة إلى سلوك الآداب ولزوم الطريق.

بل في وقت العصور الوسطى وإرسال الحملات الصليبية إلى بلدان المسلمين واحتلال بلدانهم، التفَّ الناس حولهم عندما علموا أن الخلاص بالالتفاف حول السادة الصوفية الذين سلّكوهم وزكّوا أنفسهم وهذّبوا أخلاقهم، وشحذوا هممهم للجهاد الأكبر ثم الأصغر

---

(١) البداية والنهاية، ١٣/ ٣٠٩.

(٢) المنهل الصافي لابن تغري بردي، ٦/ ٣٥٥. الخطط للمقريزي، ٤/ ٣٠٧.

(٣) الروض الزاهر، ص٢٣٨.

حتى يكون الثبات في ميادين الجهاد بعد إصلاح النفوس التي تطلب النصر فتكون أهلاً له. وكم حكى لنا التاريخ التفاف الأمة حول أهل التصوف في جميع العصور، وأن الأمة تتطلع لهذه الرموز في جميع المجالات وعند أحلك الظروف.

وهذا الشيخ محي الدين ابن عربي يربِّي المريدين ويحثُّ الأمة على جهاد الصليبيين، يقول أحمد أمين في كتابه (ظُهْر الإسلام): [إن ابن عربي كان خلال الحروب الصليبية يحرِّض المسلمين كثيراً على الجهاد ومقاومة الغزاة، وفي كل مناسبة يلعن ابن عربي الإبقاء على الصليبيين بين المسلمين، ويشيع كرهه الشديد لهم؛ داعياً لاتحاد المسلمين تفادياً لزوال الإسلام][1].

وهذا الإمام الشهيد والصوفي الكبير أبو الحسن الشاذلي، كيف كان جهاده وقيامه بالجهاد هو ومريديه، حيث يقوم بالعلم والتعليم والتربية والتهذيب، ثم بالجهاد والمجاهدة لأعداء الإسلام.

يذكر صاحب (طبقات الشاذلية) وابن العماد في كلامه على وفيات سنة (٦٥٦هـ): [وفيها -أي: توفي- الشاذلي أبو الحسن المغربي الزاهد (حجة الصوفية)، شيخ طائفة الشاذلية، كان ضريراً، اشتغل بالعلوم الشرعية ثم سلك منهاج التصوف حتى ظهر صلاحه، قدم الإسكندرية من المغرب، وصار يلازم ثغرها من الفجر إلى المغرب][2].

ثم تحول أبو الحسن من المغرب إلى مصر، وفيها يسطِّر لنا مثالاً رائعاً عن مقاومة الصوفية للغزاة، فقد كان هو وأصحابه في مقدمة الصفوف

---

(١) ظهر الإسلام، لأحمد أمين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ٤/ ٢٢٢.
(٢) شذرات الذهب، لابن العماد، ٥/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

التي دمَّرت في وقعة المنصورة سنة (٦٤٧هـ) حملة الملك الفرنسي (لويس التاسع)، بما أذكاه من حماسة في المجاهدين يثبِّت من جأشهم، ويبعث الحميَّة في نفوسهم[1].

بل تحدُّث المؤرخين هو أمر مشهود معروف عند الخاص والعام أن أولئك الهمج الرعاع الذين اجتاحوا بلدان المسلمين وقتلوا الخليفة العباسي وفعلوا الأفاعيل تمَّ دخولهم للإسلام على يد أهل التصوف الذين بذلوا جهداً أولاً في الجهاد ضدَّهم وصدِّهم وكسرهم، ثم في إدخالهم الإسلام وإنقاذهم من براثن الوثنية ثانياً.

ويأتي في طليعة هؤلاء الدعاة الشيخان: صفي الدين الباخرزي، خليفة زعيم الطريقة الكبراوية، والذي أسلم على يديه (بركة خان) حفيد (جنكيزخان) وابن عمٍّ (هولاكو).

والثاني: سعد الدين بن حمويه. قال صاحب (النجوم الزاهرة): [كان زاهداً عابداً متكلماً في الحقيقة، وله مجاهدات ورياضات، اجتمع عليه التتار فأحسنوا الظن به، وأسلم على يده خلق كثير من التتار، وبنى هناك خانقاه، وكان له قبول عظيم هناك][2].

وفي (آسيا الوسطى) دخلت الهداية قلب الملك (كاشغر المغولي) (تغلق تيمور خان) (ت٧٦٥هـ)، أثناء لقائه مع الشيخ جمال الدين البخاري النقشبندي.

---

(١) مرآة الجنان، اليافعي، ٤/ ١٠٧ وما بعدها. المدرسة الشاذلية، د.عبد الحليم محمود، ص٥٥ وما بعدها. أبو الحسن الشاذلي الصوفي المجاهد، د.عبد الحليم محمود، ص٦٠ وما بعدها.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ مصر ـ حوادث سنة ٦٥١هـ ٧/ ٣١.

انظر أخي السائر على منهج التصوف كم هم رجال التصوف في أعلى درجات الخدمة لدين الإسلام أينما كانوا وأينما حلُّوا، وكم كانت لهم أيادٍ بيضاء لنشر شريعة سيد المرسلين، وكم هم رجالٌ تحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

فما على المسلم المنتسب لأهل الطريق إلا أن يقرَّ عيناً ويرفع رأساً حيث يعتزُّ بإبراز الهويَّة الصوفية الإيمانية الإسلامية، هوية الإخاء والمحبة والنهوض بالمسلم في جميع ميادين الحياة. وحُقَّ لأعدائهم أن يحطُّوا من شأنهم ومن قدرهم بما يروجونه؛ لأنهم عرفوا أنه إنما أدخل الناس في الإسلام وحفظ للناس الدين والعزة والكرامة هؤلاء الرجال، رجال الخدمة للدين من أجل رضا الله تعالى.

ولا غرو إذاً أن نجد أصنافاً من الأفذاذ في جميع وشتَّى العلوم ينتسبون للسادة الصوفية؛ لأنه لا كمال للدين إلا بكمال أركانه الثلاثة، والركن الثالث هو الإحسان الذي عُنِي به أهل التصوف كما تقدم.

فنضرب هنا أمثلة:

٤- لعلماء وفقهاء صوفية ومجاهدين:

وهذه أمثلة فقط، وإلا فأكثر أهل العلم متسبون لأهل الطريق من الصوفية انتساب طريق أو انتساب منهج، وإليك أمثلة تدل على باقيهم.

أ- سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام.

الصوفي المعروف والمجاهد البارز. يقول الإمام السبكي والإمام

---

(١) سورة النور، آية ٣٧.

السيوطي وغيرهما: [إن العزّ لبس خرقة التصوف من الشهاب السهروردي صاحب (عوارف المعارف)][1]، وكان يحضر عند أبي الحسن الشاذلي، ويسمع كلامه في علم الحقيقة[2].

وأثنى على ابن عربي عندما قال: [لا أرى القطب في زماننا إلا هذا الشيخ][3].

وسُئل عن قول العلماء في (الإحياء) لما ذكر الغزالي في معرفة الله تعالى والعلم به فقال: [والرتبة العليا في ذلك للأنبياء، ومِنْ ثَمَّ الأولياء العارفين، ثم العلماء الراسخين، ثم الصالحين][4]، فأجاب بأن قوله متفق عليه[5].

وذكر الذهبي والإسنوي وغيرهما: أنه مع شدته وصلابته، فيه حسن محاضرة بالنوادر والأشعار، كان يحضر السماع ويرخِّص فيه[6]، وقد أجاب عن هذه المسألة بقوله: [سماع ما يحرّك الأحوال السنية المذكّرة بالآخرة مندوب إليه][7].

فانظر ما يقوله هنا سلطان العلماء، يا من تتابع أهل التصوف وتحضر

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ٨/ ٢١٤. حسن المحاضرة، جلال الدين السيوطي، ١/ ٣١٥.

(٢) حسن المحاضرة، ١/ ٣١٥.

(٣) نفح الطيب، أحمد بن المقري التلمساني، ٢/ ١٧٨.

(٤) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي، كتاب العلم، ١/ ٥٣.

(٥) فتاوى العز بن عبد السلام، دار المعرفة - بيروت، ط١ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص١٣٨.

(٦) العبر في خبر من غبر، شمس الدين الذهبي، دار الكتب العلمية - بيروت، ٣/ ٢٩٩. طبقات الشافعية، جمال الدين الإسنوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ ٢٠٠٢م، ٢/ ٨٤.

(٧) فتاوى العز بن عبد السلام، مسألة ١١٥، ص١٦٣.

في حضراتهم وتستمع إلى دفوفهم. فالدين ليس جفاء وصلابة وغلظة، بل هو سموٌّ بالروح، وشعورٌ بالرقة. فالسلطان هذا يقول عن أهل التصوف في فتاويه: [ومما يدلّ على تفضيل العارفين بالله على الفقهاء: ما يجريه الله على أيديهم من كرامات، ولا يجري شيئاً منها على أيدي الفقهاء، إلا أن يسلكوا طريق العارفين ويتصفوا بأوصافهم](1).

بل ويعتبر المجاهد العزُّ بن عبد السلام أهل التصوف هم أهل الحقيقة، وفي بيان ذلك يقول: [وليست الحقيقة خارجة عن الشريعة، فمعرفة أحكام الظواهر معرفة لجلّ الشرع، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدقّ الشرع، ولا ينكر شيئاً منها إلا كافر أو فاجر](2).

ب- الموفَّق بن قدامة المقدسي.

صاحب كتاب (المغني) المشهور في فقه الحنابلة، وهو حنبلي (ت٦٢٠هـ). أما جهاده فقد ذكروا أن للموفق وأخيه أبي عمر وتلاميذهما خيمة ينتقلون بها مع المجاهدين في سبيل الله تحت ألوية البطل صلاح الدين.

وأما عن تصوفه، فيقول الذهبي في سياق ترجمته للموفق: [ارتحل في إحدى وستين -أي: وخمسمائة- في طلب العلم إلى بغداد، فنزل عند الشيخ عبد القادر الجيلاني، وسمع منه، وقد كان يقدم إلى العدو، وجُرِح في كفه. وذكر له الضياء حكايات في كراماته](3).

---

(١) فتاوى العز بن عبد السلام، مسألة ١٠٣، ص١٤٢.

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، دار المعرفة ـ بيروت، ٢/ ١٧٩.

(٣) سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، ٢٢/ ١٦٦ ـ ١٧١.

وقد لازم الموفق شيخه الجيلاني إلى حين وفاته ثم عاد بعدها إلى دمشق، ويظهر أنه في هذا اللقاء سلك الطريقة القادرية، نستبين ذلك من كلام المؤرخ الفقيه الصوفي ابن الملقن الذي يسند لبسه للخرقة القادرية عن أبي بكر الحنبلي عن شيخه أبي إسحاق الواسطي عن الشيخ موفق الدين الحنبلي عن القطب عبدالقادر الجيلاني[1]. وقد نعته السخاوي -أي: نعت الموفق- بالزاهد الرباني، وأطنب في ترجمته، وختمها قائلاً: [ودفن في قاسيون، وقبره يزار][2]. وقال عنه ابن كثير في (البداية والنهاية): [وكانت له أحوال ومكاشفات][3].

ج- الإمام النووي (ت٦٧٦هـ):

محرِّر مذهب الإمام الشافعي الصدَّاح بالحق، العالم الزاهد الرباني. كان يحرّض الملك الظاهر بيبرس على الإسراع بملاقاة التتار، وكان بيبرس يقول: [أنا أفزع من هذا الرجل][4].

وهو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الصوفي الذي بيَّن قواعد التصوف وأصول طريقها، حتى قال في كتابه (المقاصد): [ومن أصول هذا الطريق: علو الهمة، ونفوذ العزيمة، وصحبة المشايخ ومن يدلّك على الله، وترك الرخص للتحفظ، وضبط الأوراد للحضور، واتهام النفس في كل شيء للخروج

---

(١) طبقات الأولياء لابن الملقن، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط٢ ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ص٤٩٤.
(٢) طبقات الأولياء، جمال الدين السخاوي، مخطوط، الورقة (١١٠أ)، نقل عنه صاحب (البطولة والفداء) ص١٣٩.
(٣) البداية والنهاية، لابن كثير، ١٣/ ١١٨.
(٤) التذكرة الأيوبية، موسى بن يونس الأنصاري، مخطوط، الورقة (٥٣أ)، نقل عنه صاحب (البطولة والفداء) ص١٤٠.

من الهوى][1].

د- السلطان محمد الثاني (٨٣٣-٨٨٦هـ):

السلطان الفاتح الصوفي المجاهد. يعد من أعظم سلاطين الإسلام، كان عالماً مهذباً، ذا بأس وجهاد، مع عظيم توكله واستناده على الله تعالى. وتكفي شهادة سيد الأولين والآخرين له، والثناء الوارد من المصطفى على هذا السلطان، حيث قال عليه الصلاة والسلام: «لَتُفْتَحَنَّ القسطنطينية؛ فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»[2].

فهل يا ترى النبي الأعظم عليه الصلاة والسلام يثني على هذا السلطان الصوفي وهو ليس أهلاً للثناء. وبما أن النبي عليه الصلاة والسلام أثنى عليه وهو صوفي كما سنبيّن، فهو ثناء على كل من كان سائراً على منهج هذا السلطان الممدوح من قبل المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

فلقد أجمع من ترجم للسلطان الفاتح من المتقدمين على النزعة الصوفية القوية عند هذا البطل، وأن شيخه الكبير العالم محمد بن حمزة الملقب بـ(آق شمس الدين) أدخله الخلوة ولقّنه الأوراد.

يقول صاحب كتاب (البطولة والفداء عند الصوفية): [ومن مشايخ الطريقة في زمانه: الشيخ العارف بالله الواصل إلى الله (آق شمس الدين)... لما أراد السلطان (محمد خان) فتح القسطنطينية أرسل وزيره إلى الشيخ المذكور يدعوه إلى الجهاد وإلى الحضور معه في فتح المدينة العظيمة، فحضر وبشَّر بالنصر، وقال: [ستفتح القسطنطينية إن شاء الله

(١) المقاصد، الإمام النووي، المقصد السابع في التصوف.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك من حديث بشر بن سحيم.

تعالى على يد المسلمين هذا العام في اليوم الفلاني من ناحية القلعة].

فبشَّر الوزير السلطان بما بشَّر به الشيخ من خبر الفتح، فلما صار ذلك الوقت الموعود ولم تُفْتح القلعة، ذهب الوزير إلى الشيخ يستفسر، فوجده ساجداً على التراب في خيمته وهو يتضرع ويبكي، ثم قام وكبَّر وقال: [الحمد لله الذي منحنا فتح هذه المدينة]. قال الوزير: [فنظرت إلى جانب المدينة فإذا العسكر قد دخل بأجمعه ففتح الله ببركة دعائه في ذلك الوقت، وكانت دعوته تخرق السبع الطباق]. وقال السلطان كلمته المشهورة: [ما فرحت بهذا الفتح، وإنما فرحي من وجود مثل هذا الرجل في زماني].

ثم بعد يوم جاء السلطان إلى خيمة (آق شمس الدين) وهو مضطجع وقبَّل يده، وقال له: جئتك لحاجة عندك. قال: ما هي؟ قال: أريد أن أدخل الخلوة عندك أياماً. فقرأ الشيخ عليه الأوراد، والسلطان جالس أمامه على ركبتيه يستمع الأوراد، فلما أتمها التمس السلطان من الشيخ أن يعيِّن له قبر (أبي أيوب الأنصاري) الصحابي الذي استُشهد على أبواب القسطنطينية.

فقال آق شمس الدين: [التقت روحي مع روحه وهنَّأني بهذا الفتح]. ثم سار الشيخ إلى منطقة وقال: [إني أشاهد في هذا الموضع نوراً لعل قبره هاهنا فاحفروا مقدار ذراعين من جانب الرأس من القبر] فحفروا في الموضع المشار إليه، فظهر رخام عليه خط، فقرأه من يعرفه وفسَّره فإذا هو ما قرره الشيخ.

فغلب على السلطان محمد حال كاد أن يسقط، لولا أن أخذوه، ثم أمر

بناء مسجد وقبة على قبر الصحابي الجليل][1]اهـ.

٥- الجهاد في العصر الحديث عند الصوفية.

لقد ذكر الله تعالى لنا في كتابه أن الذين كفروا سيكون دأبهم في هذه الحياة وهدفهم الدائم فيها هو إطفاء نور الله الذي أتى به النبيُّ الأكرم عليه الصلاة والسلام، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾[2]. ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾[3]. والنبي عليه الصلاة والسلام أخبرنا بأن الأمم ستتداعى علينا من كل حدب وصوب[4]، وبكلِّ طريقة من طرق التداعي: في الثقافة، في الفكر، في الأخلاق، في الاقتصاد، في السياسة، في المنهج، في جميع المجالات وبشتى الطرق وأنواع الوسائل والكيد

---

(١) انظر: البطولة والفداء عند الصوفية، للأستاذ أسعد الخطيب، ص١٤٤-١٤٥.
- البدر الطالع في محاسن مابعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة - بيروت، ٢/ ١٦٦ ومابعدها.
- الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، طاش كبرى زاده، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، ص١٣٩ - ١٤٠.
- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والآثار، محمود مقديش، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط١ ١٩٨٨م، ٢/ ٢٧ وما بعدها.

(٢) سورة التوبة، آية ٣٢.

(٣) سورة البقرة، آية ١٢٠.

(٤) وهو قوله صلى الله عليه وسلم:(يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الآكلة على قصعتها قال: قلنا: يا رسول الله، أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن. قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: حب الحياة وكراهية الموت) أخرجه أحمد في مسنده وأبو داود في سننه.

للإسلام من جميع الجوانب.

والمستقرئ للتاريخ يجد ذلك الكيد منذ عهد الخلافة الراشدة وقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى يومنا هذا، ومنه ما يقومون به من انحراف الفكر وإحلال الثقافات المضادة للإسلام وروحه وهديه وعقيدته وفكره بما يخطط له الأعداء ويُجَنِّدون له تجنيداً كثيفاً حثيثاً بشتى أنواع التجنيد والتجييش له، وذلك بتَبَنِّي الحركات التي نشروها باسم الإسلام والدعوة للإسلام، وهي في الحقيقة تنخر في جسم الأمة وتنحدر بها إلى الهاوية.

وقد أخبر عن ذلك الصادق المصدوق، بأنهم من أبناء جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا -كما أتى الخبر بذلك[1]- وهم أشد فتكاً على الأمة؛ لتلبيسهم الباطل بالحق، وجرِّ الويلات على الأمة بأسرها، كما هو الحال في ما بيَّناه من أولئك الذين يحاربون التصوف وأهله باسم الدين وسلامة المعتقد، وقيامهم بتشويه الحقائق وقلبها، وعرض ما عند أولئك الأفذاذ من صلحاء الأمة السالكين بها إلى منهج السلوك بأنه من

(١) وذلك فيما أخرجه البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله صفهم لنا، فقال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك).

أكبر ما يهدم الإسلام.

فأتوا بما ظفروا به في كتب أهل الله تعالى من عبارات تَحْمِل ظواهرها منافاة للشرع، وهذه العبارات قد تكون صحيحة حرَّفوا معناها إلى القبيح وهي معروفة عند أهلها على الوجه الصحيح، وإما مدسوسة على أهل الله في كتبهم كما دسَّ أولئك في أحاديث رسول الله، لكن بيّنها الراسخون في علم الحديث، ولذلك بيَّن الراسخون من علماء الأمة هذا الزيف المنسوب لأهل الله.

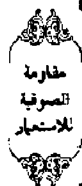
وكذلك أتوا بقصص يريدون بها تشويهاً، وحكمها حكم ما ذكرنا، وذلك بعدم بيان المفهوم الصحيح لها رغم أنها صحيحة لها شواهد في الكتاب والسنة وسير أهل القرون الأولى، ولكنه الجهل من المتلقي منهم هذه القصص مع التشويه الكامل منهم، وإيغالهم في الخصومة، خدمة لأسيادهم الذين يخدمونهم، إن علموا أو لم يعلموا، ولنقص التربية الروحية عندهم والسلوك لديهم، حيث إن الوصول إلى تلك التربية لا يكون إلا بالمجاهدة والتزكية. وكم قصَّت لنا السِّيَر أمثال تلك القصص في الرعيل الأول، بل وفي الأمم السابقة كما قصّها لنا القرآن وقصتها لنا كتب السنة.

أو تكون بعض هذه القصص التي ظفروا بها من المدسوس على أهله، إذ الظن بهؤلاء الأفذاذ غير ما يقوله هؤلاء الأغمار.

وأنت قد لحظت قيامهم بالتصدي لمن أرادوا إطفاء نور الله ووقفوا لهم سدًّا منيعاً وجبالاً راسيات، صدَّت رياح أولئك الذين يريدون دمار الإسلام والمسلمين، سواء أكان بالفكر والثقافة، أو بالتشكيك في دين الله، أو بزرع الفتن بين أهله، أو باجتياح بلدان المسلمين في ميادين

القتال واجتياح بلدانهم ونهب خيراتهم، وليست الحملات الصليبية ببعيد، والتي تصدَّى لها من ذكرنا من أهل هذا الطريق الحق الصادق القائم على معنى التجرد والعيش الكامل من أجل الله والدار الآخرة.

حتى لحقه في هذا العصر الحديث الاستعمار الذي اجتاح بلدان المسلمين عسكرياً، وسُمِّي بالاحتلال والاستعمار الذي احتل بلدان المسلمين شرقها وغربها. فالمغرب العربي احتلّه الإيطالي والفرنسي، وإفريقيا كذلك، ومصر والشام والجنوب العربي وغيرها من بلدان المسلمين. لم يتصدى لها إلا الأشاوس مِمَّن زكت نفوسهم وطَهُرت قلوبهم من أهل الطريق أهل التصوف، فكانوا شوكة في حلوق المستعمرين حتى أجلوهم عن بلدان المسلمين.



وبقي من الاستعمار والاحتلال بقية، وهو احتلال فلسطين، لما لم يقم بمقاومة أولئك المستعمرين -وهم اليهود أراذل خلق الله وأحقرهم وأرذلهم- أقول: لم يقم بمقاومتهم أهل الله من أهل التصوف، وإنما تولى الجهاد أو وُلِّي الجهاد فيه لمن نعرف من تلك الحركات التي ليس لها استناد لأهل الله تعالى، فبقي هذا العدو الذليل في هذه الأرض إلى هذه الأيام، بل واستأسد الذئاب في عصر من واجههم ممن يُسموا بالمقاومين في تلك النواحي، وهم لهم ميل هنا أو هناك، ويفتقدون إلى التربية الروحية التي تعمل لله ومن أجل الله.

وكيف رأينا أولئك الأشاوس قادوا الأمة من نصر إلى نصر، سواء في الفتوحات، أو ضد أعداء الإسلام، أو في إخراجهم من أراضي المسلمين وإن طال بهم المقام فيها.

وما حصل في العصر الحديث من أكابر أهل التصوف الذين قاوموا

الاستعمار وأخرجوهم من ديار المسلمين مما سأسرده -سرداً مقتضباً من كتاب (البطولة والفداء عند الصوفية)- كنماذج يدل على مدى تأثير المنهج الصوفي في النهوض بالأمة ومقاومة عدوّها، بل ومعرفة الأعداء مصدر قوة المسلمين في رجال التصوف الذين يقومون بغرس الفضائل والتربية في أفراد المجتمعات الإسلامية، لكي تكون ناهضة بالأمة في جميع أطوار حياتها.

١- الطريقة السنوسية وعمر المختار (ليبيا):

وذلك في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حيث قاد نضال الاحتلال في ليبيا الطريقة الصوفية السنوسية، ومؤسسها محمد بن علي السنوسي(١٧٨٧-١٨٥٩م)، تعلم بـ(فاس) وتصوف، وغدا بين مريدي سيدي أحمد بن إدريس الفاسي ت(١٨٥٣م)، رئيس الطريقة الخضيرية الشاذلية.

قال صاحب (طبقات المالكية) والكتاني في فهرسه: [هو الإمام العارف، الداعي إلى السنة، ختم المحدثين، حجة الله على المتأخرين، الولي المقرب، أبو عبد الله محمد بن علي السنوسي الجزائري ولادة المكي هجرة، الجغبوبي مدفناً. أخذ الطريقة الشاذلية بالمغرب من مولاي العربي الدرقاوي، وزار المشرق آخذاً عن جماعاتٍ طرقهم][(١)].

وبعدما رأيت من سيرة هذا الإمام البطل، الذي أخذ العلم، وكان حجة في السنة؛ إذ كان من المحدثين، وأخذ التربية الصوفية التي تبني

---

(١) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لابن مخلوف، ترجمة رقم:١٦٠٤، ١/ ٥٧٠ بتصرف. فهرس الفهارس والأثبات، لعبد الحي الكتاني، ٢/ ١٠٤٠- ١٠٤١ بتصرف.

شخصية من يأخذ بها إلى التطلع لما عند الله والدار الآخرة، فتجدُ أن شخصيته بنيت على أركان الدين الثلاثة، فبأخذ العلم حقَّق الإسلام والإيمان، وبالتربية والتزكية (التصوف) حقَّق الإحسان خاتمة أركان الدين.

[وقام هذا المجاهد الصوفي البطل بالعمل على بناء قوة عربية إسلامية في صحراء ليبيا، تقوم دعامتها على أساس الزوايا والرباطات التي لم تكن للعبادة والوعظ فقط؛ وإنما كانت مراكز نشاط وحيوية وإصلاح، فكان شيخ الزاوية يربي أتباعه على ضرورة تعلم الرماية، وإتقان أساليب القتال، وتحولت هذه الزوايا عند الغزو الإيطالي لليبيا في مطلع هذا القرن إلى معاقل حقيقية للدفاع عن السيادة والكرامة، تحمَّل عبء النضال من خلالها السَّنوسِيُّون، بقيادة البطلين المجاهدين عمر المختار، وأحمد الشريف السنوسي.

وكان عمر المختار (١٨٥٨-١٩٣١م) قد التحق بزاوية الجغبوب وعمره ستة عشر عاماً، تعلم فيها على أيدي كبار شيوخ السنوسية ومارس داخلها العبادة، حتى تزكت روحه وصفت نفسه، حتى جعل من زاويته الكبرى في الجغبوب مقراً ومركزاً للعمليات العسكرية ضد المستعمر حتى استشهاده][1]، وعمر المختار الصوفي الكبير معروف، ومعروفٌ جهاده واستشهاده على يد المستعمر الإيطالي.

وأما أحمد الشريف السنوسي (١٨٦٧-١٩٣٣م)، العالم الجليل، والمحدِّث الصوفي الشهير، فيُعَدُّ أيضاً من كبار مجاهدي السنوسيين، قاتل بضراوة الإيطاليين.

---

(١) ص١٧٩ ـ ١٨٠.

وما أحسن وصف شكيب أرسلان لهذا البطل وأشباهه: فبينما هم أشداء على الكفار؛ إذ هم بالليل رهبان، وبينما هم في شجاعتهم من الأبطال، هم في عبادتهم من الأبدال، يجمعون بين الشدة واللين، والأنفة والتواضع، مما يُذَكِّر بالمجتمع الإسلامي خلال القرون الأولى.اهـ.

نعم هذا هو حال الصوفية -امتداداً للرعيل الأول من مجاهدة لأعداء الإسلام لا المسلمين، لا يُجَرِّد لهم حسام إلا لقتل عُبَّاد الأوثان، لا كما قال ﷺ عن أولئك الذين يعادون أهل الله بأنهم يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان[1]، مع كونهم حاملي العداء والتشويه لأهل التصوف، ويُلصِقون بهم كل منقصة رغم أن هذا هو تاريخهم وجهادهم وسلوكهم، مع ما نلاحظه من سلوك أولئك عبر أدوار التاريخ من تفتيت الأمة وبلبلة الأفكار وترويج الإرهاب وقتل الأبرياء من المسلمين ونبش القبور وقول الزور، والترويج للرذيلة كما نشاهد ونسمع، والله ليس بغافل عما يعمل الظالمون.

٢- الأمير عبد القادر الجزائري والشيخ الحداد (الجزائر):

يقول صاحب (البطولة والفداء): [وفي خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر، لاحظ الخبراء الفرنسيون أن زعماء حركة الجهاد التي تولت محاربتهم انطلقت من الطرق الصوفية، وخاصة المرتكزة منها حول الزوايا (الصوفية)، التي كانت منذ قرون تعتني بالعلم والتصوف، وعند الخطر تدقُّ طبولها وتُسْفِر عن وجهها وتتعاون للدفاع عن البلاد

(١) أخرج البخاري ومسلم قوله ﷺ: (إنَّ من ضئضئ هذا قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد).

وصدّ العدو المشترك، ومع أن الحماس الديني والوطني مشترك بين جميع فئات الشعب، فإنما كان دور الطرق الصوفية إعطاء القيادة وتوحيد الكلمة.

وقد صوَّر أحمد توفيق مدني في كتابه (تاريخ الجزائر) دور هذه الطرق في عصور الجهل والظلمات، ولولا تلك الجهود التي بذلوها لما كنا نجد الساعة في بلادنا أثراً للعربية ولا لعلوم الدين][1].

نعم إنهم حصن الدين واللغة المنيع في جميع بلدان المسلمين لأنهم يعملون ولا ينتظرون أجراً ولا أموالاً تتدفق عليهم من هنا وهناك، بل يعملون من أجل الدين والشريعة لله وللدار الآخرة وخدمة ما جاء به الرسول ﷺ، لا لملء الجيوب ولا للوصول للرئاسة والزعامة لنهب خيرات وأموال المسلمين.

وانظروا إلى قول العدو إذا أنصف في بعض الأحيان عندما يجد الهامات التي تنحني لها الجباه، فهذا المؤرخ الفرنسي برنار يصف الأمير عبد القادر الجزائري بقوله: [كان أنيقاً جميلاً شجاعاً، وكان متديناً عن إخلاص ومن صميم الفؤاد، ولم يطلب الإمارة لإشباع أطماع نفسية، بل ليقود أمته في طريق الفلاح. وكان قاسياً عند اللزوم، ورحيماً عند الاقتضاء، وكان أجلَّ وأبرز أعدائنا في الجزائر][2].

إن الأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٧-١٨٨٥م) يعد شيخ المجاهدين بلا منازع في العصر الحديث، وجهاده معروف، وقد نشأ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في بيت علم ودين، وصحب والده في رحلة طويلة، إذ زار

---

(١) ص١٨٣.

(٢) ص١٨٦.

الأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج، ثم توجه إلى الشام آخذاً عن علماءها الطريقة النقشبندية، ثم سار إلى بغداد لزيارة ضريح جده عبد القادر الجيلاني، ونال هناك عمَّن اجتمع بهم الطريقة القادرية، ثم قصد بلاد الحجاز مرة ثانية وتشرَّف وتبرَّك بزيارة الرسول الأعظم ﷺ وأصحابه الغُرِّ الميامين، كما التقى مع العارف بالله محمد الفاسي فأخذ عنه الطريقة الشاذلية.اهـ.

وأخيراً عاد إلى بلاده ليجد الجحافل الجرَّارة من المستعمرين الفرنسيين، وقد بدأت تداهم الجزائر، فاجتمع الأشراف والعلماء وأعيان القبائل عند شجرة عظيمة، وهناك بايعه الجميع على تقلُّد الإمارة والزعامة الجهادية، فذهبت البشائر في أقطار الأرض، ووضع الأمير لنفسه خاتماً نقش عليه:

ومن تكن برسول الله نصرته　　إن تلقه الأسد في آجامها تجم

حارب الأمير الفرنسيين بلا هوادة، وقام بأدوار مدهشة حيَّرت أعداءه، مثل: عدم النوم خلال أسابيع، وندرة إغماد سيفه، حتى استحق ما قيل عنه من أن سرجه كان عرشه[1].

وبقيام الأمير عبد القادر توالت الثورات، فقامت ثورة عام ١٨٧١م بزعامة الحاج محمد المقراني والشيخ محمد الحدّاد شيخ الطريقة الدرقاوية الشاذلية، وكانت مراكز الشيخ محمد الحدّاد أماكن لتنظيم خلايا المجاهدين.

٣- محمد أحمد المهدي (السودان):

ويشبه جهاد الأمير عبد القادر الجزائري للفرنسين جهاد زعيم صوفي

(١) ص١٨٤ـ١٨٥.

آخر في السودان للإنجليز، وهو محمد أحمد الملقب بالمهدي (١٨٤٣-١٨٨٥م)، وقد تربى هذا الزعيم تربية دينية، فحفظ القرآن ودرس العلوم، وبهرته دون أترابه في الدروس أنوار التصوف، فأقبل عليها، وأخذ الطريقة السمّانية الشاذلية عن أحد شيوخها. وبعد موت شيخه انقطع للعبادة في القبة التي بناها هو وأصحابه على قبر شيخه في جزيرة (أبا) في النيل الأبيض خمس عشرة سنة[1].

ولما ذاع صيته في تلك الجزيرة بالعلم والصلاح التفَّ حوله كافة مشايخ الطرق الصوفية لقتال الإنجليز، فأجابهم لذلك، وأُحضرت الرايات من جميع أنحاء البلاد مكتوبٌ عليها [لا إله إلا الله محمد رسول الله]، وأمر محمد أحمد الملقب بالمهدي بإضافة: [الجيلاني وليُّ الله، الرفاعي وليُّ الله، الدسوقي وليُّ الله، البدوي وليُّ الله]؛ إظهاراً بأن جميع الطرق واحدة لا فرق بينها ولا تفريق، بل إنها تدعو لاستقامة السلوك وتهذيب النفوس، وانتصر أصحاب الطرق بقيادته على الإنجليز، بعد خوض الحروب ضدهم، وكسبهم للانتصارات في جميع المعارك ضدهم.

يقول صاحب (حلية البشر): [وفي سنة أربع وتسعين ظهر رجل بالسودان يسمى محمد أحمد، ولم يدَّعِ أنه المهدي، وكان قبل ظهوره مشهوراً بالصلاح، ومن مشايخ الطرائق، وكثر أتباعه ومريدوه، فلما دخل الإنجليز حاربهم وحصل له وقائع كثيرة، والغلبة في تلك الوقائع كلها له عليهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، فتملَّك جميع السودان، وكان أمره معهم عجيباً، يأتون إليه بالعساكر الكثيرة والمدافع والآلات

---

(١) البطولة والفداء، ص١٩٠.

الشهيرة، فيقابلهم بجيوشه من السودانيين وليس معهم إلا السيف والرمح والسكاكين].اهـ[1].

ولقد صدقت فيه إشارات الحديث القدسي: «مازال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»[2].

وقد تمكن الثوار بقيادة المهدي من محاصرة الخرطوم سنة (١٨٨٥م)، وقتل حاكم السودان الإنجليزي غوردن، وقيل: إن المهدي كان يريده حيًّا ليفتدي به أحمد عرابي رفيق دربه في العقيدة والكفاح، ويخرجه من منفاه في سيلان.

إن بين الزعيمين الكبيرين عواطف روحية حية، وتعشّقاً للحرية والوطن واللقاء دوماً حول شعار [الله أكبر] الذي هزّ أركان المستعمرين وهدد كيانهم[3].

فانظروا يا من تؤمنون بكرامات الأولياء، وقرُّوا عيناً بصدق ما يروى عنهم من خوارق العادات التي أجراها الله على أيديهم، وقد أجرى الله أمثالها على أيدي الصحابة ومن بعدهم، وإن روّج أولئك الحاملون لواء التشويه الزاعمون أنهم أهل الكتاب والسنة، والحاملون لواء التوحيد

---

(١) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق البيطار الدمشقي، دار صادر - بيروت، ط٢ ١٤١٣هـ - ١٩٨٣م، ١/ ٨٠١. ونقله عنه صاحب (البطولة والفداء) ص١٩١-١٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) البطولة والفداء عند الصوفية، للأستاذ أسعد الخطيب، ص١٩٢.

لإعادة الناس إليه -كما يزعمون أنهم خرجوا منه-، واختلقوا الشائعات والأراجيف على أهل الله، والطعن في كراماتهم التي أكرمهم بها الله تعالى، من خلال تحوير الكلام واستبعاد الحصول لها، وكأنهم يظنون أن الأولياء هم صانعو الكرامات، وما دروا أن صانع الكرامة هو الله، الذي استيقنته قلوب أوليائه، وتعلقت به، وتحققت بحقائق التوحيد، وعرفت أن الكون كلّه مؤتمِر بأمره، وما أجراه الله على أيديهم أو أعطاهم إياه مما طلبوه؛ إنما هو شيء يسير حقير في جانب عظيم قدرته، ونسوا أن النبي الأعظم قال عنهم كما يرويه عن ربه: «وإن سألني لأعطينه»، لكنه التجرّد والخلوص والإيمان، والذي كثيرٌ من القلوب خاوية عنه، نسأل الله التمكين. وليتَهم بقوا على ذلك الخواء؛ وإنما نسبوا أهل الامتلاء الإيماني للشرك والكفر فيا لله العجب.

٤- أحمد عرابي (مصر):

وأحمد عرابي (١٨٤١-١٩١١م) الزعيم المعروف، والمجاهد المشهور، وموقد وزعيم الثورة ضد الإنجليز في مصر، نشأ وترعرع في بيئة صوفية. وأحمد عرابي الحسيني مسلم صوفي، محبٌّ لأهل البيت، جاور في الأزهر عامين، اتصاله وثيق بالعلماء، التفَّ حوله جند مؤمنون بالله، كان له تأثير على كثير من الضباط الذين أحبوه وانضموا تحت لوائه، وشاهدوا في أقواله موافقة لأفعاله، فقد كان يعيش رَحِمَهُ ٱللَّهُ عيشة الزاهد المتقشف، متأسياً في ذلك بالسلف الصالح، وهو القائل: [لا نجاح لأمة نبذت أحكام دينها ظِهرياً، ولا فلاح لقوم استعبدتهم شهواتهم].

وشكَّل هذا الزعيم مجلس قيادة كان من ضمنه الشيخان الجليلان الصوفيان: الشيخ حسن العدوي صاحب كتاب (نفحات الشاذلية)،

وهو من خطباء الثورة. والشيخ محمد علّيش الذي توفي في سجن المستشفى الذي اقتيد إليه وهو مريض؛ لتحريضه على ثورة عرابي. ويهمّنا من مؤلفاته: (القول المنجي حاشية على مولد البرزنجي).

ولا ننسى نضال كلٌ من السادة الصوفية، مثل الشيخ محمود الشاذلي، والشيخ محمد القاياتي، وأخوه أحمد، والعلامة النقشبندي محمد الطنطاوي.

وفي عهد حملة نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨م نجد أن البطش والإرهاب أول ما نال علماء التصوف في الأزهر؛ لعلمهم أنهم حركوا الجماهير، فسُجن البعض ونُفي الآخر. ونذكر من هؤلاء الذين قادوا الثورات ضد المحتل: الشيخ محمد السادات شيخ السادة الوفائية، الذي قاد سنة ١٧٩٨م ثورة القاهرة الأولى، والشيخ عمر مكرم نقيب السادة الأشراف، الذي قاد الثورة الثانية سنة ١٨٠٠م. ومنهم: علي البكري الصديقي شيخ السجادة البكرية، ولقبته الجرائد بشيخ الأمة. ومن بعده ابنه محمد توفيق البكري (ت١٩٣٢م)، وقد تقلد محمد توفيق بعد أبيه مشيخة الطرق الصوفية، وهو أول من نادى: (مصر للمصريين) و(أنا ضد أي: احتلال أجنبي). وعمل على تكتيل الرأي العام تجاه الاستعمار البريطاني[1].

٥- الشيخ عبد الله الحكيمي (اليمن):

وهو الشيخ المصلح عبد الله الحكيمي الشاذلي ت(١٩٥٩م)، وكان قد هاجر في بداية حياته إلى جزر كارديف، وهدى الله به من الأمة هناك الكثير، وأسّس هناك (الجمعية العلوية الشاذلية)، وفي آخر أيامه عاد

---

(١) البطولة والفداء عند الصوفية، للأستاذ أسعد الخطيب، ص١٩٣ ـ ١٩٥.

لليمن، وتزعَّم حركة التحرير فيها[1].

٦- الأمير محمد الخطابي (المغرب):

رغم التركيز الشديد من قبل الاستعمار على المغرب، والسعي لتبديد هويته، وحتى لغته؛ خوفاً من المدِّ الإسلامي تجاه الأرض السليبة المفقودة الأندلس، المسماة الآن (أسبانيا)، ومنها إلى غيرها من دول أوروبا، لذا كان التركيز الشديد على استعمار المغرب وقلب هويته، ولكن صمد المغرب بصمود السادة الصوفية فيه، الذين كان لهم الدور الفعَّال في الحفاظ على الهوية الإسلامية واللغة العربية ونشر علوم السنة والشريعة.

يقول صاحب كتاب (البطولة والفداء): [وإن الذي كفل للشخصية الإسلامية الاستمرار والصمود في المغرب العربي: عمق المشاعر الروحية، وهذه الظاهرة تُفَسِّر لنا انتشار الطرق الصوفية في أفريقيا، ويؤكِّد الباحثون المنصفون في هذا الصدد على أمرين:

الأول: أن مريدي هذه الطرق هم الذين سعوا في نشر الإسلام، ووُفِّقوا إليه في أفريقيا.

والأمر الثاني: أن القاسم المشترك بين زعمائها المجاهدين أنها كانت تسير على هدى من التصوف.

وقد كانت زوايا الطرق الصوفية من أهم مراكز التعبئة لمواجهة الوجود الأجنبي. وكانت المعاقل الحقيقية للدفاع عن السيادة والكرامة والعقيدة لا تستسلم ولا تساوم. ومن أشهر تلك الطرق في القرن الماضي الطريقة الدرقاوية الشاذلية التي قامت بدورٍ فعَّال إبَّان الاستعمار

---

(١) البطولة والفداء عند الصوفية، للأستاذ أسعد الخطيب، ص ١٩٥.

الفرنسي للمغرب][1].

ومن أبرز شخصيات المغرب المحاربة للاستعمار الفرنسي هناك: البطل المراكشي الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي (١٨٨١-١٩٦٢م). وهذا الأمير مسلم صوفي، تربى على محبة الله ورسوله وخدمة الشريعة وجهاده ضد المستعمر. وجهاده في المغرب ضد الفرنسيين معروف، ومعه كثير من أهل الطريق[2].

٧- الشيخ محمد عبد الله (الصومال):

الشيخ المجاهد الصوفي محمد عبد الله حسن ت (١٩٢٠م)، وهو من أبرز خلفاء شيوخ الطريقة الصالحية (وهي فرع من الشاذلية)، قاد بلاده من نصر إلى نصر أكثر من عشرين عاماً.

وقد اتجه جهاده منذ البداية إلى شعبتين: إحداهما دينية بنشر مبادئ الطريقة الصالحية لمقاومة عمليات التبشير. والأخرى حملت الطابع العسكري للوقوف في وجه القوى الأوربية، فظلَّ حاملاً سيفه يحارب قوات أكبر ثلاث دول في القرن التاسع عشر وهي: بريطانيا وإيطاليا والحبشة، ناهيك عن بعض القبائل المحلية التي تحالفت مع القوى الأوربية ضده. وقد استطاع أن يتغلب على ذلك التفكُّك للقبائل بنشر مريديه لدعوتهم للدخول في الطريقة الصالحية وأخذ البيعة عليهم، وبذلك استطاع توحيدهم تحت رابطة الطريقة التي كانت في أنفس أتباعها أعظم من رابطة العصبية القبلية .

إنه الإصلاح والصلاح للمجتمعات الذي يقوم به السادة الصوفية

---

(١) البطولة والفداء عند الصوفية، للأستاذ أسعد الخطيب، ص ١٩٥ـ ١٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٩٦.

ولمّ لُحْمة المجتمع الذي يعيشون فيه، لا كما هو منهج أولئك الذين يزعمون اتِّباعهم للسلف والقرآن والسنة وهم يعيشون على بثّ الفرقة والخلاف والتفرق بين أبناء المجتمع الواحد باسم ما يزعمون أنه دينٌ صافٍ لهم وهم في الحقيقة مَعاوِل هدمٍ في مجتمعات المسلمين[1].

٨- الشيخ ماء العينين وابنه الهيبة (موريتانيا):

وقد تزعَّم هذا الشيخ حركة المقاومة في بلاده في وجه الفرنسيين، وتصدَّى لمطامعهم، وكبَّدهم خسائر جسيمة، وهو الزعيم الروحي مصطفى بن محمد فاضل الشنقيطي أبو الأنوار الملقب (ماء العينين)، الذي أخذ الطريقة الفاضلة التي أسَّسها والده، وهي فرع من الطريقة القادريَّة، ويُعدُّ ماء العينين من أشهر علماء عصره وأعظم أئمة التصوف فيه.

وقاد هذا الشيخ القتال ضد الفرنسيين وزحف بمن معه نحو فاس، ولكن الفرنسيين حشدوا له قواهم فطاردوه وتغلبوا عليه، ومع ذلك لم يُخَفِّف النضال بعده، بل قام بعده ابنه أحمد الهيبة الذي نشأ في حجر والده وأخذ عنه العلم والتصوف، وبعد والده اجتمع عليه المريدون وبايعه العلماء وشيوخ القبائل وسكان الحواضر بعد أن عَظُم اعتقادهم فيه، واجتمع له جيش ضخم دخل به مراكش وحقق انتصارات مذهلة ضد الفرنسيين الذين حشدوا له جموعاً بعضهم من أعوان الاحتلال، وتمَّ القضاء نهائياً على هذا الزعيم الصوفي الذي أبى إباءً كلياً أن ينقاد إلى الاحتلال بعدما حاول رجال الاحتلال ذلك بكلِّ حيلة، وقد طمَّعوه

---

(١) البطولة والفداء عند الصوفية، للأستاذ أسعد الخطيب، ص١٩٨.

أن يكون خليفة على (سوس) فأبى، فطمَّعوه بالمال والراحة فأبى[1].

انظر يا من أنت في رحاب السادة الصوفية إلى هؤلاء الرجال الذين لا يريدون بجهادهم جاهاً ولا مالاً ولا سلطاناً.

٩-الحاج عمر الفوتي والشيخ أحمد بامبا (السنغال):

فالناظر إلى أفريقيا كلِّها يجد أن جميع زعماء الجهاد فيها كانوا ملتزمين تعاليم الطرق الصوفية فيه، وهذه الطرق هي التي حفظت لأفريقيا كلِّها الهوية الإسلامية، بل ونشرت الإسلام والثقافة الإسلامية فيها بين الوثنيين من أهلها، وهي التي تصدَّرت -وعليها اقتصرت- المقاومة للوجود الأجنبي في القارة السوداء، وهي التي قامت بتوطيد العلاقات الروحية والاجتماعية والسياسية والإخاء والوحدة بين بلدانها المتباعدة المتناثرة.

ومن أبرز من قام بتمثيل هذه الأدوار: الحاج الشهيد عمر الفوتي التكروري والشيخ أحمد حبيب الله بامبا. وقد اهتم المؤرخون بحياة الأول (١٧٩٧-١٨٦٤م) نظراً للدور الكبير الذي اضطلع به في مقاومة الاستعمار الفرنسي، وبعد أخذ الشيخ عمر العلم عن الشيوخ أخذ التصوف عن أحد خلفاء الطريقة التيجانية الذي اجتمع به وأخذ عنه الأوراد التي تمكِّنه من تقلُّد منصب شيخ الطريقة[2].

وعكف على وضع أسس كتابه (الرماح) قال في مقدمته: [ومقصودنا الأعظم من تأليف هذا الكتاب: الذبُّ عن أعراض أولياء الله ومن انتسب إليهم ممن أراد الله إسعادهم، والردُّ على من ينكر عليهم ممن أراد

(١) البطولة والفداء عند الصوفية، للأستاذ أسعد الخطيب، ص١٩٩ـ ٢٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠١ ـ ٢٠٢.

الله شقاوتهم، وهو واجب على كلّ عالم متديّن؛ لأنَّ الله ورسوله أمرنا بذلك، قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[3]. وإنَّ مَن نصر العلماء العارفين بالله فقد نصر الله، ومن خذلهم فقد خان الله ورسوله، وهو هالكٌ في الدنيا والآخرة، وصحَّ في الحديث «من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب»[4]][5].

* * *

وبهذا أختم كتابي هذا وإن كنت قد تركت الكثير والكثير من مجاهدي الصوفية في العصر الحديث وإلى يومنا هذا.

وإنما ذكرت ذلك للاستدلال بالبعض على الكل، وتعريفاً بمنهج هؤلاء الرجال وصدقهم، وأنَّ كل عمل يقومون به إنما مستنده الكتاب والسنة، وحاشا لله أن يكون أمثال هؤلاء الرجال خارجين عن نهج محبوبهم ومتبوعهم ﷺ، وأنَّ أولئك المنكرين إما مغرضون وإما جُهَّالٌ وإما مُتَقَمِّصون للعلم والصلاح والتقوى وتعرَّى نفوسهم وحقيقتهم عندما يسمعون عن هؤلاء وأخلاقهم وسلوكهم. ولله دَرُّ من قال:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

وأنَّ كلَّ ما جاء به القوم حقٌّ وصدق، وأنَّ ما يروجه هؤلاء الأعداء والأغمار إما قلبٌ للحقائق وإما عدم فهمٍ وإما تشويهٌ وتشويشٌ وخدمةٌ

---

(٣) سورة محمد، آية ٧.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

(٥) انظر: البطولة والفداء، ص٢٠٢.

لأعداء الإسلام من حيث يعلمون أو لا يعلمون، وهذا ما سأبينه في الخاتمة بذكر أربع نماذج تبين مدى قلبهم للحقائق أو عدم فهمهم لما ينقلونه وهم سعداء به للنيل من أهل التصوف وذمهم وهذه النماذج ستكون مثل المفتاح لما قد يقع تحت يدك من الكتب الكثيرة المشوهة للسادة الصوفية والمكتوبة بالأقلام المأجورة أو المأزورة ولكن سيأتي يومٌ يعلم فيه الظالمون أيَّ منقلب ينقلبون، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب من قرأه واطَّلع عليه، وأن يعتزَّ صاحب الطريق والمُحِبُّ لهم والسائر على دربهم بهذه الطريق.



خاتمة

(نسأل الله تعالى حسنها)

نعم لقد كَثُر المُغْرِضون في هذا الزمان فأطلقوا ألسنتهم وأقلامهم في كل وسائل التواصل مع فئات المجتمعات الإسلامية وبشتَّى الوسائل للنيل من أهل التصوف ثلباً وتجريحاً وتنفيراً للخاص والعامّ عن أهل الله تعالى والسواد الأعظم من أمة محمد ﷺ، حتى يجعلوا نشء المسلمين تتلقفهم أيدي الفرق المتطرفة التي تعيث في أمة الإسلام قتلاً وتفجيراً وتفسيقاً وتبديعاً وتكفيراً، حتى غدا المجتمع الإسلامي في كل بلد من بلدان المسلمين يشكو الغلظة والجفاء والصلف من أولئك الذين تقمَّصوا لباس العلماء وهم من العلم بَراء، وتقمَّصوا لباس الدعوة وهم عنها عُراء إلا من التشدد المفضي إلى التطرف والادِّعاء والاستعلاء، وصدق سيد الأنبياء ﷺ عندما قال: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبرَّه، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جوَّاظٍ مستكبر»[1].

أخي الحبيب .. يا من يؤلمك النيل من هداة الأمة، أهل المحبة والمودة واللين والرحمة والقلوب السليمة والوجوه النويرة والسمة الدالة على الهدى والتقوى والاستقامة، كما يقول القائل في متبوعهم الأعظم: [من نظر في وجهه علم أنه ليس بوجه كذاب].

بل حاشاه، فإنَّ من نظر في وجهه شاهد الأنوار وغشيته الجلالة والمهابة التي تورثه المحبة والإنابة، ومن سار على هديه من رجال الله

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

الذين ملئوا الأصقاع بالنور والحلم والمحبة والإخاء، ونشروا الدين على هذا الأساس، إذا رأيت أحدهم ذكَّرك بالله، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ألا أُنبئُكُم بخِيارِكم؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: خيارُكُم الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله عزَّ وجلَّ»(١).

ولنَعُد بدءاً على ما قدمنا أن هؤلاء أهل الأهواء قد ملئوا وسائل التواصل قدحاً في أهل الله، وسارعوا في نقل مذمَّتهم وانتقاصهم بما سوَّدوه كتابة أو قولاً بالنقل عمَّا ظفروا به من أئمة الدين وسادة العلماء، وفرحوا بهذا الظفر المزعوم الذي سأنقل لك طرفاً مما ذكروه، وأبيِّن لك مدى العداوة المستكنَّة في قلوبهم لأهل الله (أهل التصوف)، حيث قاموا بتزييف النص بتراً منه وحذفاً، حتى يتوهم القارئ أن الأئمة قدحوا في أهل التصوف، وبالعود لأصل النصِّ من غير تزوير ولا تحريف نعرف حقيقة أن هؤلاء الأئمة لم يقدحوا أو يجرحوا أهل التصوف. حيث يتضح لنا أن هؤلاء الناقلين الناقمين على أهل الله قد اتبعوا سنن اليهود الذين قال الله فيهم ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾(٢)، وصدق فيهم قوله عليه الصلاة والسلام: «لتتبعُنَّ سَنَن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟!»(٣).

وإليك هذه النماذج توضِّح لك الآتي:

١- أنهم نقلوا نصوصاً عن أئمة الدين وجعلوها في وسائل التواصل

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه والبيهقي في الشعب.

(٢) سورة النساء، آية ٤٦.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

المقروء والمسموع والمرئي وفي الكتب والمجلات والجرائد وغيرها عرضوا فيها أن الأئمة ذمُّوا أهل التصوف.

٢- ذكروا فيما نقلوه أن الأئمة حذَّروا من منهج التصوف وأهله.

وبالتأمل في النصوص تجد أنهم حرَّفوا بالحذف، حتى يخدم النصُّ عن العلماء ما يريدونه من الانتقاص من أهل الله تعالى.

أو جعلوا النصَّ عامًّا في كلِّ أهل التصوف، والحقُّ أن النصوص التي سنعرضها لم تكن إلا في ذمِّ من انتحل طريق التصوف وليس منهم كما سترى وتلحظ ذلك.

والمتتبع لكل طوائف المجتمع في كلِّ زمانٍ ومكانٍ يجد أنَّ هناك من اندسَّ في كلِّ أهل فنٍ وعلمٍ وسلوكٍ وديانةٍ وهو ليس منهم فطال المُنْدسِّين هؤلاء الذم، ولكن من كان في قلبه هوى أو دَخَل جعل ذلك الذم عامًّا في الكل إبطالاً للحق وإيغالاً في اللجاج والخصومة.

وأنت أخي المحب تعلم أن خير الناس بعد المرسلين من الأمم هم أصحاب النبي ﷺ، وهم ينقسمون إلى مهاجرين وأنصار.

فاندسَّ مع المهاجرين من لم يكن منهم فناله الذمُّ من الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم حيث قال في الحديث المشهور: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1]، فاندسَّ مهاجر أم قيس مع المهاجرين وعناه سيد الأولين والآخرين، ولو أتى حاقدٌ أو مُغْرِضٌ وحمل النصَّ على عموم المهاجرين لم يقبله عاقل ولمجَّه أهل الإسلام وعرفوا أنه حاقد مغرض، وهؤلاء

---

(١) متفق عليه.

أتوا بنصوص العلماء وعمَّموها على أهل التصوف كما سترى.

والطائفة الأخرى من أصحاب رسول الله ﷺ هم الأنصار، واندسَّ بينهم المنافقون، وذمَّ الله هؤلاء وفضح سترهم في نصوص القرآن، وتكلم النبيُّ ﷺ ذامًّا للنفاق، فلو ظهر من يقول بتعميم النفاق في الأنصار ويعمِّم تلك النصوص لعلمنا أنه يريد النيل من أنصار رسول الله ﷺ وآله وأصحابه كما هو ديدن بعض الطوائف.

وكذلك ذمَّ كثير من العلماء الذين رووا أحاديث رسول الله ﷺ ونقدوهم وجرحوهم إما بالكذب والتزوير وإما بالضعف والتدليس فلو عمَّم معمِّمٌ وقال بأنَّ أهل الحديث كلَّهم على هذا المستوى لكان لزاماً تكذيبه وظهور افترائه.

وكذلك ذمَّ كثير من العلماء أهل الكلام -أي: المتكلمين في التوحيد- فلو عمَّم معمِّم كلامهم على الكل لكان ذلك ممجوجاً ممن عمَّمه، وأنت تعرف أنهم إنما أنكروا التعمق فيه والإغراق في مسائله الموصلة إلى الفلسفة ونحوها.

وهكذا ذمَّ بعضهم الفقهاء ولكن لم يكن عامًّاً فيهم وإنما فيمن تتبَّع الحيل ومال بحيله إلى الخروج عن سبيل التقوى والورع، أو مال إلى الحكام ومالأهم وجالسهم وامتدجهم مع كونهم ظلمة، فإذا عمَّم هذا الفعل على الفقهاء كما يفعل أولئك المغرضون في تعميمهم كلام الأئمة على الصوفية لرماه أهل العلم عن قوس واحد بأنه متحامل ومبغض لأهل العلم.

وإليك شواهد على ذلك، حيث يقول أحدهم ناقلاً في كتابه، وكذا يُكْتَب في بعض مواقع التواصل في الوقت الراهن أمثال هذه النماذج،

فيقول: [جاء في كتاب (ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك) للقاضي عياض (٢/ ٥٤): [قال التِّنيسيَ: كنا عند مالك وأصحابه حوله، فقال رجلٌ من أهل نَصيبين: عندنا قوم يقال لهم الصوفيّة، يأكلون كثيراً، ثمّ يأخذون في القصائد، ثمّ يقومون فيرقصون، فقال مالك: أصبيانٌ هم؟ قال: لا، قال: أمجانين هم؟ قال: لا، هم قومٌ مشايخ، وغير ذلك عقلاء، فقال مالك: ما سمعتُ أنّ أحداً من أهل الإسلام يفعلُ هذا!! فقال له الرجل: بل يأكلون، ثمّ يقومون ويرقصون نوائب، ويلطم بعضهم رأسه، وبعضهم وجهه، فضحك مالك ثم قام فدخل منزله، فقال أصحابُ مالك للرجل: لقد كنت يا هذا مشؤوماً على صاحبنا، لقد جالسناه نيِّفاً وثلاثين سنة، ما رأيناه ضحك إلا في هذا اليوم!] انتهى والإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ وُلِدَ سنة (٩٣هـ) ومات سنة (١٧٩هـ)].

انظر إلى هذا النقل وتدبَّره تجده واضح النكارة عارياً عن الصحة، وناقله ذلك كان يرد على صاحب كتاب وقد أطال في الرد عليه وعاب عليه أنه ذكر في كتابه ما لا يصح نقله من الأحاديث وغيرها لضعفها وكذبها، ثم نقل مثل هذه القصة وهي بلا إسناد وعارية عن الصحة كما هو واضح من عدة أمور:

١- الرواية بلا إسناد، والقاضي عياض توفي سنة ٥٤٤هـ، والتنيسي من أصحاب الإمام مالك توفي سنة ٢١٨هـ.

٢- في بعض طبعات الكتاب (طبعة دار الحياة -بيروت، ودار الفكر- طرابلس): النصيبي وليس التنيسي، وابن الجوزي نقل هذه الرواية بلا إسناد أيضاً عن النصيبي، وسمّاه في موضع آخر عبد الملك بن زياد وهذا

هو اسم النصيبي. والتنيسي ثقة، أما النصيبي فذكره ابن الجوزي في الضعفاء والمتروكين وقال: منكر الحديث[1].

٣- ذكر بعضهم[2] في معرض حديثه عن هذه الرواية ما نصُّه: [الناقل للخبر المستشهد به رجل مجهول من نَصيبين لا تُعرف حاله، حكى قصة أشبه بالطرفة لا تطابق ما عليه صوفية ذلك العصر من التقلل في المأكل وما تواطأ على نقله المحققون من أن أول مبتدأهم الزهد، مع رميهم بأفعال لم تظهر إلاّ في المتأخرين كالرقص! وقد ذكر ذلك ابن الجوزي في تلبيسه عليهم بالتقلل من المأكل. ونصَّ على ما يفهم منه أن الرقص ما ظهر إلاّ متأخراً الشاطبي نفسه. فهذا يدل على نكارة ما أخبر به ذلك الرجل من أهل نَصيبين، ولهذا أنكره مالك وقال: ما سمعت أن أحداً من أهل الإسلام يفعل هذا، مع أنه يعرف الأئمة المنتسبين إلى التصوف في ذلك العصر، والإمام مالك ليس بجاهل منقطع عن الناس تخفى عليه أحوالهم، فهذا كلُّه يدل على أن الخبر منكر، وهو مع نكارته يحكي صورة معينين لا يتعداهم الحكم إلى من كان ينكر عليهم ذلك حتى من المتصوفة الذين جاءوا من بعدهم].

٤- القاضي عياض صاحب كتاب (ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك) غالباً ما يذكر لمن يترجم لهم من أهل التصوف عنواناً قائلاً فيه: ذكر جملة من براهينه وكراماته. فكيف يذكر كراماتهم مصدِّقاً بها مرتضياً لها، ثم يأتي بقصة تعيب فيهم على الجملة.

٥- صاحب الكتاب في كتابه يترضى عن الصوفية، قال أثناء ترجمة

---

(١) الضعفاء والمتروكون لابن الجوزي، ١/ ٢٣٤.

(٢) وذلك في بعض المواقع على شبكة الإنترنت.

ربيع القطان المتوفى سنة ٢٨٨هـ: [وشعره كثير وخطبه ورسائله كثيرة متعددة مسطّرة على طريق كلام الصوفية ورموزهم رضي الله عنهم](١).

ومن هنا يظهر أنه على صحة الرواية -وهي ليست صحيحة كما بيَّنا- فإنه -أي: القاضي عياض- وصاحب الرواية عن الإمام مالك وكذا الإمام مالك إنما ينقدون أولئك الذين ألصقوا أنفسهم بالصوفية وهم يفعلون مثل هذه الأفعال الشنيعة.

٦- ينقل القاضي عياض في كتابه المذكور عن الإمام مالك قوله: [وقال ابن مهدي سمعت مالكاً يقول: لو علمت أن قلبي يصلح على كُنَاسَةَ(٢) لذهبت حتى أجلس عليها](٣). وهذا هو مذهب أهل التصوف.

٧- قال في الكتاب المذكور أثناء ترجمة قاضي القضاة إسماعيل بن إسحاق المتوفى سنة ٢٨٢هـ: [ولما كانت محنة غلام الخليل، ومطالبة الصوفية ببغداد ونسبتهم إلى الزندقة، وأمر الخليفة بالقبض عليهم. وكان ممن قبض عليه شيخهم إذ ذاك أبو الحسن النوري. فلما أدخلوا على الخليفة وأمر بضرب أعناقهم، فتقدم النوري مبتدراً إلى السّياف، ليضرب عنقه. فقال له: ما دعاك إلى هذا دون أصحابك؟ فقال: آثرت حياتهم على حياتي هذه اللحظة. فرفع الأمر إلى الخليفة، فردّ أمره إلى قاضي القضاة إسماعيل. فقدم إليه النوري، وسأله عن مسائل من العبادات. فأجابه. ثم قال له بعد هذا: لله عبادٌ يسمعون بالله، وينقطعون

(١) ترتيب المدارك، ٥/ ٣١٥.
(٢) كُنَاسَةَ: هو المكان الذي تلقى فيه القمامة.
(٣) ترتيب المدارك، ٢/ ٥٣.

بالله، ويصدقون بالله، ويردون بالله، ويأكلون بالله، ويلبسون بالله، فلما سمع إسماعيل مقالاته بكى بكاءً طويلاً. ثم دخل على الخليفة قائلاً: إن كان هؤلاء زناديق فليس في الأرض موحّدون. فأمر بإطلاقهم][1].

وقال أيضاً في ترجمة خلف بن عمر: [سأل عبد الله صاحب القيروان أبا محمد بن أبي زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: من أحفظ أصحابكم؟ فقال له: أبو سعيد. قال: فمن أحفظهم بخلاف الناس؟ قال: أبو سعيد. وذكر مرة حفظه وقوة نفسه فقال: لو شاء أن يخطي دحمان بن معافى، فعل. وقال أبو القاسم بن شبلون: ما أُخذ على أبي سعيد مسألة خطأ قط. قال أبو محمد الأجدابي: كان أبو سعيد من أجلّ أهل زمانه، يعرف طريق الصوفية][2].

ومن هذا النموذج يظهر ما يريد أولئك الناقمون الحاقدون على أهل الديانة والسلوك والإرادة من نقل النصوص الموهمة انتقاصهم وتعميم ذلك على أهل الله، والحقُّ أنها إن صحت إنما قيلت فيمن ينتسب إليهم ظاهراً كما هو حال المنافقين في عهده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولم ينتسب إليهم باطناً، وأتى بأشياء منكرة كما جاء المنافقون بأشياء منكرة ذكرها القرآن، حتى وصل بهم الحال إلى الاستهزاء بآيات الله ورسوله.

ثم أذكر نموذجاً آخر يدل على إيغال هؤلاء في البغض لأهل التصوف، حيث يقول في كتابه وكذا تجد التقول في الكتب والمواقع في الإنترنت تتواصل في نقل مثل هذا النموذج ويفرحون به فيقول: [وأمّا الإمام الشّافعي فقد ثبت عنه بالأسانيد الصحيحة أنّه ذمّ التصوّف والصوفية في عصره بإطلاق:

---

(1) ترتيب المدارك، 4/ 288.
(2) المرجع السابق، 6/ 211.

١- روى البيهقي في مناقب الشافعي: [عن يونس بن عبد الأعلى يقول: سمعت الشافعي يقول: [لو أن رجلاً تصوّف من أول النهار لم يأت عليه الظهر إلا وجدته أحمق].

٢- عن الرَّبيع بن سليمان يقول: سمعت الشافعي يقول: [ما رأيت صوفياً عاقلاً قط إلا مسلم الخوَّاص]][(١)].

ثم بعد النقل لكلام الإمام الشافعي يقتصر عليه ليوهم القارئ أن الإمام الشافعي ذمَّ الصوفية، وحاشاه وقد قدَّمنا ما قاله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم إنهم يفعلون كما فعل اليهود في آية الرجم في التوراة حيث قرأوا ما قبلها وما بعدها وتركوا وسط ذلك في عهده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ودلَّه على كذبهم ذلك عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث ترك هذا وأمثاله ما قاله الإمام البيهقي بعد نقله لكلام الإمام الشافعي ولم ينقلوه ليُضِلُّوا غيرهم ويُبْعِدوا بالمجتمعات الإسلامية عن أهل التصوف.

وإليك ما قاله الإمام البيهقي الذي نقلوا عنه قول الإمام الشافعي حيث يقول في الكتاب المذكور: قال الإمام البيهقي في الكتاب المذكور بعد ذكره هاتين المقالتين بإسناده عن الإمام الشافعي ما نصه: [قلت: وإنما أراد به من دخل في الصوفية واكتفى بالاسم عن المعنى وبالرسم عن الحقيقة، وقعد عن الكسب وألقى مؤنته على المسلمين ولم يبالِ بهم ولم يَرْعَ حقوقهم، ولم يشتغل بعلم ولا عبادة، كما وصفه في موضع آخر. وذلك فيما أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أبا عبد الله الرازي يقول: سمعت إبراهيم بن المولد يحكي عن الشافعي أنه قال: لا يكون الصوفي صوفياً حتى يكون فيه أربع خصال: كسول أكول نئوم

(١) مناقب الإمام الشافعي للبيهقي، ٢/ ٢٠٧.

كثير الفضول. وإنما أراد به ذمَّ من يكون منهم بهذه الصفة، فأما من صفا منهم في الصوفية بصدق التوكل على الله عز وجل واستعمال آداب الشريعة في معاملته مع الله عز وجل في العبادة، ومعاملته مع الناس في العشرة، فقد حُكِي عنه أنه عاشرهم وأخذ عنهم.

وذلك فيما أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال: سمعت عبد الله بن الحسين ابن موسى السلامي يقول: سمعت علي بن أحمد يقول: سمعت أيوب بن سليمان يقول: سمعت محمد بن محمد بن إدريس الشافعي يقول: سمعت أبي يقول: صحبت الصوفية عشر سنين ما استفدت منهم إلا هذين الحرفين: «الوقت سيف، ومن العصمة أن لا تقدر»][1].

قلت: هذان الحرفان اللذان استفادهما زيادة على ما عنده من سلوك أهل التصوف، وهو دليل على أنه سالكٌ لطريقهم، ولو كان فيهم خلل لما اصطحبهم ذلك الإمام الفذُّ هذه السنين الطوال والله أعلم.

ثم قال: [وبلغني أنه رأى مِن بعض من تسمى باسم الصوفية ما كره، فخرج قوله في ذمِّ أمثاله. وذلك فيما قرأته من كتاب أبي الحسن العاصمي: أخبرني الزبير ابن عبد الواحد قال: حدثني سعيد بن عبد الله بن سهل أبو عثمان البغدادي بمصر قال: سمعت علي بن بحر الوراق يقول: كان الشافعي رَحِمَهُ اللهُ رجلاً عَطِراً وذلك أنه كان به باسور وكان يجيء غلامه كل غداة بغالية فيمسح بها الاسطوانة التي يجلس عليها، وكان إلى جنبه إنسان من الصوفية، وكان يسمي الشافعي البطَّال، يقول: هذا البطَّال وهذا البطَّال. قال: فلما كان ذات يوم عمد إلى شاربه فوضع فيه قذراً، ثم جاء إلى حلقة الشافعي، فلما شمَّ الشافعي الرائحة

---

(١) مناقب الإمام الشافعي للبيهقي، ٢/ ٢٠٧ـ ٢٠٨.

أنكر فقال: فَتِّشوا نعالكم، فقالوا: ما نرى شيئاً يا أبا عبد الله، قال: فيشمُّ بعضكم بعضاً، فوجدوا ذلك الرجل، فقالوا: يا أبا عبد الله، هذا. فقال له: ما حملك على هذا؟ قال: رأيت تجبرك فأردت أن أتواضع لله. قال: خذوه فاذهبوا به إلى عبد الواحد -وكان على الشرطة- فقولوا له: يقول لك أبو عبد الله: اعتقل هذا إلى أن ينصرف. قال: فلما خرج الشافعي دخل عليه فدعا به فضربه ثلاثين درة أو أربعين درة، فقال: هذا بما تخطيت المسجد بالقذر وصليت على غير الطهارة][(1)].

وبهذا يتضح لك أيها المتسب إلى القوم خلط ومغالطة هؤلاء القوم مما يجعلك جديراً بالاعتزاز بأهل الله تعالى والالتحاق بركبهم.

ثم أنقل هنا نموذجاً ثالثاً لما كتبه هذا الرادُّ، وكذلك غيره يفعل كفعله كما قدمت، ويظهر في هذا الأنموذج الاجتزاء المخل حيث يظهر بما أورده من نصٍّ منقوص بأن إماماً من أئمة الدين وهو الإمام تقي الدين السبكي الشافعي يذم الصوفية، وإليك ما نقله ليوهم أن الإمام السبكي رَحِمَهُ اللهُ يذم الصوفية فيقول: [قال الإمام تقي الدين السبكي الشافعي: [ومن كان من هؤلاء الصوفية المتأخرين كابن عربي وغيره، فهؤلاء ضُلَّال جُهَّال، خارجون عن طريق الإسلام، فضلاً عن العلماء] انتهى. قال ذلك في باب الوصية من شرح المنهاج ونقله الكمال الدّميري والتقي الحصني].

وهنا سأبين لك زيف هذه المغالطة من أمثال هؤلاء وما يريدون تصويره في أذهان الأمة وخاصة العامة، والتشكيك لمن يحب ويسير على درب أهل الله تعالى من أن العلماء يُحَذِّرُون منهم وينتقصونهم.

تفنيد نقل عن الإمام السبكي في ذم الصوفية

---

(1) مناقب الإمام الشافعي للبيهقي، 2/208-209.

فأولاً: سأبين أن العبارة مجتزأة وبتمامها يُعرف المراد.

ثانياً: سأوضح لك ارتباط من نقلوا عنه بأهل التصوف حتى يتبين لك مكانة أهل التصوف عند علماء الإسلام، وأنهم عندما يحملون على المتصوفة فإنما يريدون -كما أسلفنا- من دخل فيهم وهو ليس منهم.

١- طبعاً الناقل لم ينقل كلام الإمام السبكي من شرحه على المنهاج لأن الشرح مازال مخطوطاً، وإنما نقله عمَّن نقله عنه كالإمام الدميري ثم أنقص العبارة عن عمد وتقصُّد ليدرك مبتغاه كما أسلفنا، وإليك العبارة بتمامها. يقول الإمام الدميري في كتابه (النجم الوهاج في شرح المنهاج): [قال -أي: الإمام السبكي-: وهكذا الصوفية منقسمون كانقسام المتكلمين فإنهما من وادٍ واحد، فمن كان مقصوده معرفة الرب سبحانه وصفاته وأسمائه والتخلُّق بما يجوز التخلُّق به منها والتحلِّي بأحوالها وإشراق الأنوار الإلهية عليه والأحوال السنية لديه فذلك من أعلم العلماء لا محالة، ولذلك عدَّ الغزالي في مقدمة (المستصفى) من العلم الديني: العلم الباطن أي: علم القلب وتطهيره من الأخلاق الذميمة. ومن كان من هؤلاء الصوفية...].

ونقل فقط قوله [ومن كان من هؤلاء الصوفية] إلى آخره حتى إذا نظر القارئ إليه قال بأن الإمام السبكي يذم الصوفية.

نقل الإمام الشربيني في (مغني المحتاج) عن الإمام السبكي عبارته كاملة وهو يتكلم عمن اندسَّ أو انتسب إلى أصحاب علم وهو ليس منهم فذمَّه. وعبارته كما في (مغني المحتاج) على قول (المنهاج): [ولو أوصى لجيرانه فلأربعين داراً من كل جانب، والعلماء أصحاب علوم الشرع من تفسير وحديث وفقه لا مقرئ وأديب ومعبِّر وطبيب وكذا

متكلم عند الأكثرين]: [وقال السبكي: إن أُريد بعلم الكلام العلم بالله تعالى وصفاته وما يستحيل عليه ليرد على المبتدعة وليميِّز بين الاعتقاد الصحيح والفاسد فذاك من أجلّ العلوم الشرعية، والعالم به من أفضلهم، وقد جعلوه في كتاب السِّيَر من فروض الكفايات. وإن أُريد به التوغل في شُبَهه والخوض فيه على طريق الفلسفة وتضييع الزمان فيه والزيادة على ذلك أن يكون مبتدعاً وداعياً إلى ضلالة فذاك باسم الجهل أحق. وأما الكلام في الإلهيات على طريقة الحكماء فذاك ليس من أصول الدين بل أكثره ضلال وفلسفة والله يعصمنا بمنّه وكرمه آمين. وهذا هو القسم الذي أنكره الشافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقال: لأن يلقى العبد ربه بكل ذنب ما عدا الشرك خير له من أن يلقاه بعلم الكلام. قال السبكي: وكذا الصوفية ينقسمون إلى هذين القسمين وأطال في ذلك.. ثم قال في آخر كلامه: ومن كان من هؤلاء الصوفية المتأخرين كابن عربي وابن سبعين والقطب القونوي والعفيف التلمساني فهؤلاء ضُلَّال جُهَّال خارجون عن طريق الإسلام فضلا عن العلماء. وقال ابن المقري في روضه: إن الشك في كفر طائفة ابن عربي كفر. قال شيخنا -أي: شيخ الإسلام زكريا الأنصاري-: وهم الذين ظاهر كلامهم عند غيرهم الاتحاد. قال: والحق أنهم مسلمون أخيار وكلامهم جارٍ على اصطلاحهم كسائر الصوفية، وهو حقيقة عندهم في مرادهم وإن افتقر عند غيرهم ممن لو اعتقد ظاهره عنده كفر إلى تأويل؛ إذ اللفظ المصطلح عليه حقيقة في معناه الاصطلاحي مجاز في غيره، فالمعتقِد منهم لمعناه معتقِدٌ لمعنى صحيح. وقد نصَّ على ولاية ابن عربي جماعة علماء عارفون بالله تعالى منهم الشيخ تاج الدين بن عطاء الله والشيخ عبد الله اليافعي.

ولا يقدح فيه وفي طائفته ظاهر كلامهم المذكور عند غير الصوفية؛ لما قلناه، ولأنه قد يصدر عن عارف بالله تعالى إذا استغرق في بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحل ذاته في ذاته وصفاته في صفاته ويغيب عن كل ما سواه عبارات تشعر بالحلول والاتحاد؛ لقصور العبارات عن بيان حاله الذي ترقَّى إليه، وليست في شيء منهما كما قاله العلامة السعد التفتازاني وغيره] اهـ[1].

٢- ملازمة الإمام تقي الدين السبكي للصوفية أشهر من أن تُذكر.

قال الإمام تاج الدين السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) أثناء ترجمة والده الإمام تقي الدين: [وصحب في التصوف الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله][2]. ثم قال: [ومن كلامه في التصوف والمواعظ والحكم. وهذا بحر واسع يسع مجلدات وقد تضمن الكثير منه تصانيف له لِطاف، ونحن نشير إلى يسير مما لم يخصه بالتصنيف. سمعت الشيخ الإمام يقول: الصوفي من لزم الصدق مع الحق والخلق مع الخلق. نقلت من خط الشيخ الإمام: فكرت فوجدت منشأ الفساد كله من الكبر، وهو أول المعاصي لما استكبر إبليس، وذلك أن القلب إذا كبر استعلى واحتقر غيره فيمنعه ذلك من قبول الموعظة ومن الانقياد، وإذا صغر وحقر انقاد واستسلم وانطاع لمن هو أكبر منه، فيؤثر فيه كلامه ووعظه ويعرف به الحق فيحصل له كل خير. ووجدت الصلاح كله في كلمتين من الحديث النبوي: قوله ﷺ: «وعليك بخويصة نفسك وليسعك بيتك» أما قوله: «وعليك بخويصة نفسك» فإن في الاشتغال بنفسه

---

(١) مغني المحتاج، للخطيب الشربيني، ٣/ ٧٧.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى، ١٠/ ١٤٦.

تهذيبها وتنقيتها من الدنس، وتكسبها الصفات الحميدة التي تجاور بها رب العالمين، والاشتغال بالناس لا خير فيه. وأما قوله «وليسعك بيتك» فالسلامة في العزلة، ومتى خرج الإنسان من بيته تعرض للشقاء وانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾[1]. وقد نظمت هذا المعنى في قولي:

كبر القلب مانع من قبول ... لرشاد فكن صغيرا حقيرا

والزم البيت لا تفارقه شبرا ... تلقَ عند الخروج شرا كثيرا

انتهى.

قلت: رأيت بخط الشيخ الإمام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حائط خلوته تجاه وجهه ما نصه: [كن حلس بيتك] [انصر أخاك] [كل المسلم على المسلم حرام] [دع ما يريبك] [عليك بخويصة نفسك ويسعك بيتك] انتهى. كأنه كتبه تذكرة لنفسه كلما أراد أن يخرج من البيت، رَحِمَهُ اللَّهُ ما كان أكثر مجاهدته للنفس.

نقلت من خطه قدس الله روحه: [كل عمل العبد الصالح ينبغي له أن يخفيه عن كل أحد حتى يلاقي به الله تعالى يوم القيامة فهو أعلم به ويجازيه به، وإذا تكلم مع أحد بقدر الضرورة في علم أو نحوه فينوي به إما إفادته أو الاستفادة، فهذان الأمران ينبغي للعاقل أن يلزمهما ولا يغفل عنهما، والتجربة تفيدهما، وتفيد أن الناس عدم بالكلية لا ينفعون شيئاً، وإذا تحقق العبد ذلك انتفى عنه الرياء وخرج من قلبه محبته ولزم الأمرين المذكورين والله أعلم][2].

---

(١) سورة طه، آية ١١٧.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى، ١٠/ ٢٩٥ـ ٢٩٧.

٣- يقول الإمام السيوطي في (الحاوي للفتاوي) في رسالة (تنزيه الاعتقاد عن الحلول والاتحاد): [والحاصل أن لفظ الاتحاد مشترك، فيطلق على المعنى المذموم الذي هو أخو الحلول وهو كفر، ويطلق على مقام الفناء اصطلاحاً اصطلح عليه الصوفية ولا مشاحة في الاصطلاح؛ إذ لا يمنع أحد من استعمال لفظ في معنى صحيح لا محذور فيه شرعاً] اهـ(١).

ثم انظر يا محبَّ أهل الله إلى هذا النموذج الأخير الذي أذكره لك، وقد ذكره ذلك الرادُّ -وغيره يفعل مثله-، حتى تتبين لك حقيقة كذب هؤلاء القوم الذامِّين لأهل التصوف وكيف يتصرفون في اجتزاء النصوص لخدمة غرضهم في تنفير الناس عن أهل التصوف، فتراه يقول: [وقال الشيخ تقي الدين الحصني الشافعي في كتابه (كفاية الأخيار) (١/ ١٥٩) وهو من الكتب المعتمدة في المذهب الشافعي، وفي كتاب الزكاة عند بيان الأصناف التي تُدفع إليهم الزكاة:

[... الأراذل من المتصوّفة الذين قد اشتهر عنهم أنهم من أهل الصلاح المنقطعين لعبادة ربّهم، قد اتخذ كل منهم زاوية أو مكاناً يُظْهِر فيه نوعاً من الذكر، وقد لفَّ عليهم من له زي القوم، وربّما انتمى أحدهم إلى أحد رجال القوم كالأحمدية والقادرية، وقد كذبوا في الانتماء، فهؤلاء لايستحقُّون شيئاً من الزكوات، ولا يحِلّ دفع الزكاة إليهم، ومن دفعها إليهم لم يقع الموقع وهي باقية في ذمّته، ..... ويجب على كل من يقدر على الإنكار أن يُنكِر عليهم، وإثمهم متعلّق بالحكام الذين جعلهم الله تعالى في مناصبهم لإظهار الحق، وقمع الباطل وإماتة ما جاء رسول الله

(١) الحاوي للفتاوي، ٢/ ١٢٧.

ﷺ بإماتته والله أعلم]. انتهى.

١- عندما تنظر إلى تمام العبارة لن تجد إلا أن هؤلاء لا يخافون الله تعالى ولا يظنون أنهم سيحاسبهم الله على ما اجترئوه وما نقلوه وزيّفوه في يومٍ تشخص فيه الأبصار، فعبارة الإمام تقي الدين الحصني في كتابه (كفاية الأخيار): [قلت: قد كثر الجهل بين الناس لا سيما في التجار الذين قد شُغِفوا بتحصيل هذه المزبلة للتلذذ بأكل الطيب ولبس الناعم والتمتع بالنساء الحسان والسراري إلى غير ذلك، وبقي لهم بكثرة مالهم عظمة في قلوب الأراذل من المتصوفة الذين قد اشتهر عنهم أنهم من أهل الصلاح المنقطعين لعبادة ربهم، قد اتخذ كل منهم زاوية أو مكانا يظهر فيه نوعاً من الذكر، وقد لفَّ عليهم من له زي القوم، وربما انتمى أحدهم إلى أحد رجال القوم كالأحمدية والقادرية وقد كذبوا في الانتماء، فهؤلاء لا يستحقون شيئا من الزكوات ولا يحلُّ دفع الزكاة إليهم، ومن دفعها إليهم لم يقع الموقع وهي باقية في ذمته، وأما بقية الطوائف وهم كثيرون كالقلندرية والحيدرية فهم أيضا على اختلاف فرقهم فيهم الحلولية والملحدة وهم أكفر من اليهود والنصارى، فمن دفع إليهم شيئاً من الزكوات أو من التطوعات فهو عاصٍ بذلك ثم يلحقه بذلك من الله العقوبة إن شاء، ويجب على كل من يقدر على الإنكار أن ينكر عليهم، وإثمهم متعلق بالحكام الذين جعلهم الله تعالى في مناصبهم لإظهار الحق وقمع الباطل وإماتة ما جاء رسول الله ﷺ بإماتته والله أعلم][1].

٢- تعبير الإمام تقي الدين بقوله: (الأراذل من المتصوفة) أي: بعض

---

(١) كفاية الأخيار، ١/ ١٩١.

المتصوفة بدليل ذمّه في موضع آخر للأراذل من الفقهاء.

وعبارته: [قلت: وأشد الناس فسقاً من المسلمين فقهاء السوء وفقراء الرجس الذين يترددون إلى الظلمة طمعاً في مزبلتهم مع علمهم بما هم عليه من شرب الخمور وأنواع الفجور وأخذ المكوس وقهر الناس على ما تدعوهم إليه أنفسهم الأمَّارة وسفك الدماء وقمع من دعاهم إلى ما نزلت به الكتب وأرسلت به الرسل، فلا يغتر بصنع هؤلاء الأراذل من الفقهاء، ويجب اتباع ما جاء به سيد السابقين واللاحقين ﷺ][1].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكان الفراغ منه ظهر يوم الإثنين الموافق ١/ ٨/ ١٤٣٤هـ.



---

(١) كفاية الأخيار، ١/ ٣٨٢.

قائمة المراجع والمصادر

أولا: كتب السنة:

١- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، دار البشائر الإسلامية - بيروت، ط٣ ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٢- الجامع المسند الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل البخاري، دار الكتب العربية - بيروت، ط٣ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م،.

٣- الزهد، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط٣ ١٩٩٦م.

٤- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

٥- سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ط١ ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٦- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧- سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٨- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، دار إحياء الكتب العربية، بيروت.

٩- شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، ط١ ١٤١٠هـ دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠- صحيح ابن حِبَّان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان البستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢ ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

١١- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ط ١٣٧٤هـ.

١٢- الفردوس بمأثور الخطاب، أبو شجاع شيرويه بن شهردار الديلمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤٠٦هـ.

١٣- كنز العمال، علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة

- بيروت، ط٥ ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
١٤- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله، تحقيق: مصطفى عطا، ط١ ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٥- مسند أبي يعلى، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى، دار المأمون للتراث - دمشق، ط١ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
١٦- مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٠م.
١٧- مسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو البزار، مؤسسة علوم القرآن - بيروت، ط ١٤٠٩هـ.
١٨- مسند الطيالسي، أبو داود أحمد بن داود الطيالسي، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
١٩- معجم الطبراني الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط٢ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.

ثانياً: الكتب الأخرى:

٢٠- أبو الحسن الشاذلي الصوفي المجاهد، عبد الحليم محمود، القاهرة، ط ١٩٦٧م.
٢١- أبو يزيد البسطامي، عبد الحليم محمود، بيروت.
٢٢- إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة - بيروت.
٢٣- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الجزري، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٢٤- الاعتصام، لأبي إسحاق الشاطبي، المكتبة التجارية الكبرى - مصر.
٢٥- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط١٥ ٢٠٠٢م.
٢٦- البداية والنهاية، لابن كثير، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٢٧- البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة - بيروت.

٢٨- البطولة والفداء عند الصوفية، الأستاذ أسعد الخطيب، دار التقوى، دمشق، ط٥.
٢٩- بغية الطلب، كمال الدين ابن العديم، دار الفكر، بيروت - لبنان.
٣٠- تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ ٢٠١٠م.
٣١- تاريخ ابن الوردي، عمر بن مظفر ابن الوردي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
٣٢- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ابن الأثير، دار الكتب الحديثة - القاهرة، ط ١٩٦٣م.
٣٣- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ ١٤١٧هـ.
٣٤- تاريخ دمشق، لابن عساكر، دار الفكر - بيروت، ط ١٩٩٥م.
٣٥- تاريخ الملك الظاهر، عز الدين بن شداد، الرياض، ط ١٩٨٣م.
٣٦- تأييد الحقيقة العلية، جلال الدين السيوطي.
٣٧- تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد للإمام إبراهيم الباجوري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
٣٨- التذكرة الأيوبية، موسى بن يونس الأنصاري، مخطوط.
٣٩- تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
٤٠- ترتيب المدارك، القاضي عياض بن موسى اليحصبي، مطبعة فضالة - المغرب، ط١ ١٩٦٦م.
٤١- التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد الكلاباذي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ ١٤٠٠هـ.
٤٢- تهذيب الأسماء واللغات، شرف الدين يحيى النووي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
٤٣- تهذيب التهذيب، أحمد بن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط١ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٤٤- الحاوي للفتاوي، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٤٥- حسن المحاضرة، جلال الدين السيوطي، دار إحياء الكتب العربية - مصر، ط١ ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
٤٦- حلية الأولياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١ ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٤٧- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق البيطار الدمشقي، دار صادر - بيروت، ط٢ ١٤١٣هـ - ١٩٨٣م.
٤٨- الحياة السياسية وأهم مظاهر الحياة في بلاد الشام، أمينة بيطار، دمشق، ط ١٩٨٠م.
٤٩- الدرُّ المختار للفقيه علاء الدين الحصكفي مع حاشية رد المحتار لابن عابدين عليه، دار الفكر - بيروت، ط٢ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
٥٠- رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت، ط١.
٥١- رجال ومواقف، بسام العسلي، دمشق، ط ١٩٨٣م.
٥٢- الرسالة القشيرية، للإمام أبي القاسم القشيري، مطابع مؤسسة دار الشعب - القاهرة، ط ١٤٠٩هـ.
٥٣- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ابن شداد، ط١ ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
٥٤- روض الرياحين، عبد الله بن أسعد اليافعي، المطبعة الإبراهيمية - مصر.
٥٥- الزهد، أحمد بن حنبل، دار الدعوة الإسلامية، الإسكندرية، ط ١٩٨٧م.
٥٦- زهد الثمانية من التابعين، ابن أبي حاتم، إدارة البحوث الإسلامية، الهند.
٥٧- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط٣ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٥٨- شذرات الذهب، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط١ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٥٩- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ابن مخلوف، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١ ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٦٠- شرح عين العلم وزين الحلم، ملا علي قاري، المطبعة المنيرية ١٣٥١هـ.

٦١- شرح نظم مقدمة ابن رشد، الشيخ محمد بن إبراهيم التتائي.
٦٢- الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، طاش كبري زاده، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
٦٣- صفة الصفوة، ابن الجوزي، دار الحديث - القاهرة، ط ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٦٤- الضعفاء والمتروكون لابن الجوزي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ ١٤٠٦هـ.
٦٥- طبقات الأولياء، ابن الملقن، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط٢ ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٦٦- طبقات الخواص، شهاب الدين أحمد الشرجي الزبيدي، الدار اليمنية، ط١٩٨٦م.
٦٧- طبقات الشاذلية الكبرى، أبو علي الحسن الفاسي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢ ٢٠٠٥م.
٦٨- طبقات الشافعية، جمال الدين الإسنوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ ٢٠٠٢م.
٦٩- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢ ١٤١٣هـ.
٧٠- طبقات الصوفية، أبو عبد الرحمن السلمي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٧١- الطبقات الكبرى لابن سعد، دار صادر - بيروت، ط١ ١٩٦٨م.
٧٢- ظهر الإسلام، أحمد أمين، دار الكتب العلمية - بيروت.
٧٣- العبر في خبر من غبر، شمس الدين الذهبي، دار الكتب العلمية - بيروت.
٧٤- العقد الفريد، ابن عبد ربه، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١ ١٤٠٤هـ.
٧٥- العهود المحمدية، الإمام عبد الوهاب الشعراني، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
٧٦- عوارف المعارف، شهاب الدين السهروردي، مكتبة الإيمان - مصر، ط١ ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٧٧- غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، محمد السفاريني الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط٢ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٧٨- الغنية لطالبي طريق الحق، الشيخ عبد القادر الجيلاني، دار الجيل - بيروت، ط١ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٧٩- فتاوى العز بن عبد السلام، دار المعرفة - بيروت، ط١ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٨٠- فتاوى ومسائل ابن الصلاح، دار المعرفة - بيروت، ط١ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٨١- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة - بيروت، ط ١٣٧٩هـ.
٨٢- فتوح البلدان، أحمد بن يحيى البلاذري، دار ومكتبة الهلال - بيروت، ط ١٩٨٨م.
٨٣- الفتوحات المكية، ابن عربي، دار صادر، بيروت - لبنان.
٨٤- فهرس الفهارس والأُثبات، لعبد الحي الكتاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٢ ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
٨٥- قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر، للشيخ محمد بن يحيى التادفي الحنبلي، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي - مصر، ط ١٣٥٦هـ.
٨٦- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، دار المعرفة - بيروت.
٨٧- قواعد التصوف، شهاب الدين أحمد المعروف بزروق، مطبعة الملاح.
٨٨- قوت القلوب، لأبي طالب المكي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢ ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٨٩- الكامل في التاريخ، لابن الأُثير، دار الكتاب العربي - بيروت.
٩٠- كشف الخفاء، إسماعيل بن محمد العجلوني، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٣ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٩١- كشف المحجوب، أبو الحسن الهجويري، القاهرة، ط ١٩٦٧م.
٩٢- كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار، تقي الدين الحصني، دار الخير - دمشق، ط ١٩٩٤م.
٩٣- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، لعبد الرؤوف المناوي، مصر،

ط ١٩٨٣م.
٩٤- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت - لبنان، ط٣ ١٤١٤هـ.
٩٥- المتطوعة ودورهم في حراسة ديار العروبة والإسلام، مجلة العربي الكويتية، العدد ٢٨٧، د. إحسان صدقي.
٩٦- مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح، حسن بن عمار الشرنبلالي، المكتبة العصرية، ط١ ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م
٩٧- مرآة الجنان، عبد الله بن أسعد اليافعي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٩٨- المدرسة الشاذلية، د.عبد الحليم محمود.
٩٩- مروج الذهب، لأبي الحسن علي المسعودي، دار الهجرة، ط ١٤٠٩هـ.
١٠٠- المسالك والممالك، لأبي إسحاق إبراهيم الإصطخري، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
١٠١- مشاهير علماء الأمصار، ابن حبان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١٩٥٩م.
١٠٢- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت - لبنان، ط٢ ١٩٩٥م.
١٠٣- معيد النعم ومبيد النقم، تاج الدين السبكي، دار الكتاب العربي - مصر، ط ١٣٦٧هـ.
١٠٤- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، للخطيب الشربيني، دار الفكر - بيروت.
١٠٥- مفردات غريب القرآن، للراغب الأُصفهاني، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط١ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
١٠٦- المقاصد، الإمام شرف الدين يحيى النووي.
١٠٧- مناقب الإمام الشافعي، للبيهقي، دار التراث - القاهرة، ط١ ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
١٠٨- منازل السائرين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
١٠٩- المنقذ من الضلال، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٥ ٢٠١٠م.
١١٠- المنهل الصافي، يوسف ابن تغري بردي، الهيئة المصرية العامة للكتاب -

القاهرة.
١١١- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، لتقي الدين المقريزي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ ١٤١٨هـ.
١١٢- الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية، يوسف خطَّار.
١١٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي - مصر.
١١٤- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأثار، محمود مقديش، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط١ ١٩٨٨م.
١١٥- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن المقري التلمساني، دار صادر - بيروت، ط١ ١٩٩٧م.
١١٦- الهدية العلائية، علاء الدين عابدين، دار الفكر، دمشق ١٣٨٠هـ.
١١٧- هذا هو التصوف، لرشيد ناجي الحسن، دار اليمامة - حمص، ط١ ١٩٩٦م.
١١٨- الوصايا، لمحي الدين ابن عربي، دار الإيمان - بيروت، ط٢ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
١١٩- وفيات الأعيان، لابن خَلِّكان، دار صادر - بيروت.
١٢٠- الولاة والقضاة، لأبي عمر محمد الكِنْدي المصري، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١ ١٤٢٤هـ.

فهرس

الاعتزاز والتشرف

بالانتساب لأهل التصوف

نبذة عن المؤلف

هو العلامة الفقيه المربي الشيخ محمد بن علي باعطية، من أجلاء علماء مدرسة حضرموت، ولد عام ١٣٨٠هـ بوادي دوعن بحضرموت - اليمن، ونشأ متعلقاً ببيوت الله وصلحاء الوادي وعلمائه. ثم انتقل إلى (الحجاز) وتتلمذ هناك على أيدي كوكبة من علماء حضرموت وغيرها أخذ عنهم مختلف العلوم الشرعية وآلاتها، وتعمق فيها حتى أذنوا له بالتدريس والإقراء قبل بلوغه سن العشرين. ومن أبرزهم: العلامة أحمد مشهور بن طه الحداد رحمه الله.

فقام منذ ذلك السن بإقراء القرآن الكريم والعلوم الشرعية وتربية المريدين ورعاية السالكين، واستمراراً في العطاء قام بتأسيس وإدارة رباط وكلية الإمام الشافعي للعلوم الشرعية منذ ١٤٣١هـ بالمكلا - حضرموت، حيث يقيم فيه تعليماً منتظماً للطلبة المتفرغين على منهج مدرسة حضرموت يمنح الدارس فيه درجة البكالوريوس. وتتويجاً لجهوده في خدمة فئات المجتمع قام بتأسيس وإدارة مؤسسة الإمام النووي الخيرية للتنمية منذ ١٤٣٢هـ.

له عدد من المؤلفات، منها: (الدرة اليتيمة) و(غاية المنى) و(زاد اللبيب) في الفقه، و(موجز الكلام) في العقيدة، و(فوائد قرآنية) في التفسير، (وغيث السحابة) في السيرة، و(السلوك الأساسية) و(الجهاد والصوفية) و(الاعتزاز والتشرف) الذي بين أيدينا.

ومواكبة للتعليم المعاصر فقد تحصل على درجة الدكتوراه في العلوم الشرعية عام ١٤٣٨هـ بعد أن تحصل على درجتي البكالوريوس والماجستير.